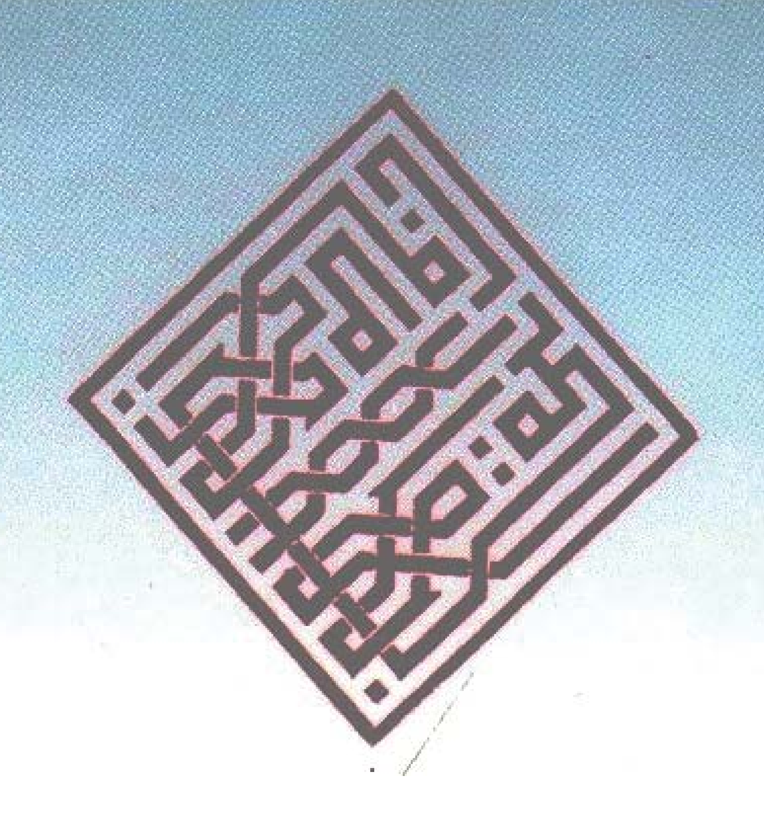
نظام المعرفة ومنهج البحث في القرآن الكريم

د. حامد العطية



نظام المعرفة ومنهج البحث
في القرآن الكريم

د. حامد العطية

طبعة إلكترونية ثانية

طبعة أولى: مطبعة الزاهر، بغداد، 2004م

ودار الأنوار للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2006م

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

مقدمة

ينفرد الإنسان دون غيره من الكائنات الحية بقدرته الفائقة على التعلم، وما تاريخ البشرية سوى نتاج عملية تعلم متواصلة، بدأت منذ قديم الزمان باكتشاف استعمالات النار والأبجدية، ويشارك فيها جميع الشعوب بطريقة أو أخرى، ولولاها لظلت البشرية في العصر الحجري حتى الآن أو لربما انقرضت. ويرجح هذا الإصرار البشري على طلب المعرفة كون هذه النزعة غريزية أو فطرية، وسواء كان الدافع وراءها حب الفضول أو التعلم أو الميل إلى القوة والتسلط، أو مجرد جني منافع ذاتية، فإنها وبلا جدال أعظم الخصائص البشرية، التي مكنتهم من التفوق على باقي الكائنات وتسخيرها لمنفعتهم، ومن المؤكد أيضاً أن حماس البشر في طلب المعرفة لم يضمحل أبداً وعلى الرغم من أنه كلما ازدادت معارفهم كلما تكشفت لهم ضآلة حصيلتهم منها.

تمثل مناهج البحث، التي شهدت تطوراً وانتشاراً مذهلاً منذ تبني المنهجية العلمية، طرقاً عقلانية منظمة لتنمية المعرفة، ومن البديهي أن العقل هو أداة الإنسان في فهم ظواهر الطبيعة، وفي إدراك ذاته وسبر دوافعه ونواهيه، وفي اختيار عقائده وأفكاره وتصرفاته، ويحتاج العقل في عملياته الإدراكية والتحليلية إلى معلومات، ليبني عليها استنتاجاته، وقد تحتمل هذه الاستنتاجات الخطأ والصواب، ومصادر الخطأ متعددة، بعضها نابع من نقص المعلومات أو تحريفها، والبعض الآخر من قصور في وسائل التحليل أو وقوع العقل تحت تأثيرات التحيزات غير الموضوعية، فعلى الرغم من شغف الإنسان بالمعرفة وحرصه على تحصيلها لم يوفق دائماً إلى بلوغ المعرفة الحقة، وفي بعض الأحيان ضل سبيله وانتهى إلى الاعتقاد بخرافات وأوهام، واكتفى في أحيان أخرى بأنصاف حقائق أو تخلى عن بحثه بفعل اليأس والإحباط، وحتى بعد استعمال المنهجية العلمية ما يزال الطريق إلى المعرفة يكتنفه الغموض ويتخلله الشك وعدم اليقين، والكثير من المعرفة المتأتية بهذه المنهجية ظنية أو

احتمالية، لم تثبت صحتها نهائياً، لكن المنهجية العلمية بدون شك تطور عظيم مقارنة بالمناهج الأخرى.

ينتشر اعتقاد بين أوساط المثقفين العلمانيين أو غير المتدينين بأن العلم والدين كيانان منفصلان ومستقلان، لا تجمعهما سمات مشتركة من حيث الأطر الفكرية والمناهج التحليلية، فالعلم الطبيعي والاجتماعي معرفة منظمة متراكمة ناتجة عن إتباع منهجية منضبطة وموضوعية تعتمد الملاحظة والتجربة والاستنتاج العقلاني، وهدفها تحري الحقائق، وهي لا منتهية، أي أنها لا تتوقف عند حد من المعرفة بل أنها متطورة ومتنامية ومتغيرة، ويضيف كل يوم جديد معرفة إلى الحصيلة المتراكمة. أما الدين فهو كيان مغلق من العقائد الثابتة، والتي تعتبر صحتها من المسلمات غير القابلة للجدل، ولا يمكن اختبار أو التثبت من صحة العديد من العقائد الدينية، وبالأخص الميتافيزيقية أو الغيبية منها. ويختلف العلماء والمتدينون حول تفسير الكثير من الظواهر، فبينما يبحث علماء الطبيعة والاجتماع عن شرح للظواهر مثل الخلق ونشوء وطبائع الإنسان في الطبيعة يعزوها المتدينون إلى مشيئة رب أو عدد من الارباب، ويعتقد مناصرو العلم والمنهجية العلمية بأن دور الدين في انحسار مستمر ومنذ نشوء النهضة العلمية الحديثة، وأن فائدته في الإجابة على بعض التساؤلات الأساسية والمحيرة، ومشروعية هذه الإجابات والتفسيرات والقبول بها متضائلة باطّراد، وستختفي في النهاية ليصبح العلم المصدر الوحيد المقبول للمعرفة، ويستدلون على صحة اعتقادهم بشواهد من التاريخ القريب والمعاصر، مثل انفضاض الكثير من الناس من حول القادة الدينيين في معظم الدول، وهجران دور العبادة فيها، ليس بفعل سياسة حكومية قسرية كما حدث في الدول الشيوعية، وإنما نتيجة فقدان الأديان في تلك المجتمعات قدرتها على اجتذاب المؤمنين واقناعهم بالدور الإيجابي للدين.

تفاوتت ردود فعل القادة الدينيين والمتدينين الملتزمين بعقائدهم الدينية على هذه التطورات المناهضة للدين، فقد عمد بعض إتباع الأديان أو المذاهب إلى الانكفاء على الذات ومراجعة كتبهم ومعتقداتهم الدينية، ودفعتهم التناقضات بين الوقائع والتواريخ التي

تسردها هذه الكتب وبين حقائق وتفسيرات العلم إلى الحكم على هذه النصوص بأنها مختلقة، أو غير دقيقة أو أنها مجازية allegorical، وبالتالي يجوز اعتبارها غير مقدسة، مما سوغ لهم حذفها أو إهمالها أو إعادة النظر في تفسيرها، والغرض من ذلك كله هو إيجاد درجة أعلى من التوافق بين معتقداتهم وبين اكتشافات وتفسيرات العلم، وقد نسى أو تناسى هؤلاء بأن التشكيك في سفر من أسفارهم زعزعة للصحة والثقة المفترضة بكافة الأسفار.

وإذا كان مقبولاً في الأديان الأخرى حذف أو إهمال بعض النصوص الدينية؛ لأنها كلها مدونة من قبل بشر، مع الافتراض بأن بعض أحكامها أو وقائعها مستوحاة من نبي أو مرسل، فإن ذلك مرفوض في الإسلام على الإطلاق؛ لأن القرآن الكريم كله، نصاً وحرفاً، من عند الله، ولا يجوز اعتقاداً التشكيك ولو بآية واحدة من آياته، كما لا يبدو بأن محاولات بعض المؤمنين المتحمسين إثبات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم مقنعة للمشككين المعتقدين بالعلم كمصدر وحيد للمعرفة، ومن المؤكد أن القرآن الكريم ليس موسوعة علمية، وليس الغرض من تنزيله تزويد الناس بالمعارف والعلوم المختلفة، ولو كان بالإمكان جمع كافة المعرفة المتراكمة حتى اليوم في موسوعة واحدة فإنها وقبل إرسالها إلى الطبع ستكون ناقصة وغير دقيقة تماماً، ومن المحتمل جداً أن تكون كل أو معظم معرفتنا الحالية بعد نصف قرن من الآن متقادمة أو حتى غير صحيحة، لذا تبقى المنهجية العلمية أهم وأعظم إنجازات النهضة العلمية الحديثة والتي تعتبر صحتها مقبولة ضمن حدود المعرفة الحالية. وينبغي التذكير هنا بأن المنهجية العلمية هي في جوهرها مجموعة من القواعد المتفق عليها حول أساليب جمع البيانات والتأكد من صحتها وإجراء التجارب والاستنتاج، وهي نفس القواعد التي يعتمدها عالم الذرة في مختبره عند إجراء اختبارات فلق الذرة، وكذلك عالم الحيوان القابع في غابة لمراقبة سلوك مجموعة من الأسود، وأيضاً عالم الاجتماع أثناء محاورته عصابة من المراهقين بهدف معرفة أسباب ودوافع انحرافهم.

يستدعي التحدي الكبير الذي يمثله العلم والمنهجية العلمية تقديم الأدلة المقنعة على احتواء الدين الإسلامي لمنهجية بحث أفضل أو مضاهية للمنهجية العلمية، ويكفي في الحد الأدنى إثبات تكافؤ المنهجية الإسلامية مع المنهجية العلمية في جودتها وكفاءتها للاعتقاد بهيمنة العقيدة الإسلامية؛ لأن أعداداً غفيرة من صفوة البشر تضافروا وعلى مدى قرون عدة على وضع وتهذيب وتطوير المنهجية العلمية، مما يبرهن على استحالة أن يكون مصدر المنهجية الإسلامية – إذا ثبتت مضاهاتها للمنهجية العلمية – إنسان بمفرده عاش قبل فترة الازدهار العلمية بأكثر من عشرة قرون. ولا يشترط للاستدلال على وجود منهجية راقية في الإسلام تخصيص سورة أو مجموعة من الآيات لهذا الغرض، فالقرآن الكريم أُنزل في زمن عرف بعصر الجاهلية وعلى قوم غير مكترثين بالمعرفة أو تعلم منهجية بحث، ولكن يكفي كدليل قاطع احتواءه على توجيهات وإشارات واضحة لا تحتاج إلى تأويل ولا يصعب إدراك مقاصدها، تشكل في حصيلتها منهجية بحث صحيحة للتوصل إلى المعرفة الحقة، وهذا هو الهدف من إعداد هذا الكتاب.

قبل البحث في النصوص عن الدلائل على وجود المنهجية لابد في البدء من إلقاء نظرة فاحصة على مفهوم المعرفة في نظام المعرفة الإسلامي، والتعرف على مصادر المعرفة ومكوناتها وأدواتها ووسائل الحصول عليها، وهذه هي بعض موضوعات الفصل الأول، والتي ستمهد للانتقال في الفصل الثاني إلى استعراض ومناقشة دور العقل في النظام المعرفي، فإذا تبين بأن للعقل دور ثانوي فسيكون من غير المجدي الاستمرار في البحث عن منهج للبحث، وسيتركز الاهتمام في الفصل الثالث على استكشاف العناصر الأساسية في النظام المعرفي ومنهج البحث مثل المفاهيم والعينات والمعلومات والتحيزات، أما موضوع الفصل الرابع فهو البرهان والتجارب والاستنتاج، ولا شك بأن الاختبار هو أعظم مزايا المنهجية العلمية والتي تجعلها مهيمنة على غيرها من المنهجيات، لذا فمن المهم استكشاف إن كان المنهج الإسلامي شامل لطريقة التجربة والاختبار مفهوماً وتطبيقاً، وبعد

اكتمال هذه الموضوعات سيكون ممكناً العودة على البدء لتقييم نظام المعرفة ومنهج البحث في القرآن الكريم، والحكم على جدواه وفاعليته مقارنة بالمنهجية العلمية.

الفصل الأول
نظام المعرفة

قبل البدء بالبحث عن المعرفة ينبغي تعريفها وبيان خصائصها وتحديد مصادرها ووسائل التحقق من صحتها، وهذه عناصر أساسية في أي نظام أو نظرية للمعرفة، وتتضح أهمية هذه العناصر من حرص رواد المدارس الفلسفية على تعريفها وشرحها، ويمكن تشبيه عناصر نظام المعرفة بقواعد وقواميس لغة ما، فكما أنه لا يمكن إتقان هذه اللغة بدون الإلمام بقواعد نحوها وإعرابها وصرفها ومفرداتها المدونة في كتب أصول اللغة وقواميسها، فإن من غير الممكن الولوج إلى المعرفة في أي مدرسة أو حقل من حقول المعرفة بدون فهم الأسس الفكرية والمنهجية العلمية لهذه المعرفة أو الحقل المعرفي، لذا يتردد بأنه ومنذ انتشار المنهجية العلمية اصبح للعلماء في كل مكان، ومهما اختلفت ألسنتهم التي يتواصلون بها في حياتهم اليومية، لغة واحدة يتخاطبون ويتبادلون الفكر بواسطتها، وللتأكد من متانة البناء المعرفي الإسلامي لابد من فحص القواعد التي يستند إليها.

مفهوم المعرفة

يقصد بالمعرفة بشكل عام "ذلك الكيان من المعلومات والنتائج والاستنتاجات حول الظواهر الطبيعية والاجتماعية"، ويشترط لتصنيف معلومة أو نتيجة ما ضمن الكيان المعرفي إتباع المنهجية العلمية في تحصيلها، والتي تضع قواعد محددة ينبغي على الباحث الالتزام بها في كل خطوة، مثل الوضوح في تعريف هدف البحث، والموضوعية في جمع البيانات، والدقة في التحليل والاستنتاج، فإذا استوفت عملية البحث هذه القواعد والشروط الصارمة اعتبرت نتائجها جزءاً من المعرفة في حقل ما، وهكذا يساهم كل بحث منهجي في تطوير المعرفة، ولا يشترط أن تكون هذه المساهمة أو الإضافة المعرفية كبيرة أو مذهلة، أو ذات نتائج راديكالية على اتجاهات المعرفة، بل إن هذا الاحتمال غالباً هو الاستثناء على القاعدة، فعادة ما تكون أهداف البحث متواضعة، وما يتحقق منها بالفعل أقل بكثير من

التوقعات، وقد تؤيد النتائج المعرفة المتوفرة أو تنسخها وتحل محلها، لذا فإن نمو المعرفة تدرجي وتراكمي **accumulative**.

إن المعرفة في أبسط أشكالها "معلومات منتقاة ومنظمة"، وفي أمثل وأتم صورها "قوانين وحقائق ثابتة"، والمادة الأولية لكل أنواع المعرفة هي "البيانات"، وتعرف أحياناً "بالبيانات الأولية" **raw data**، كما يميز البعض بين البيانات والمعلومات من خلال تعريف المعلومات بأنها بيانات مختارة أو منتقاة على أساس قواعد وشروط محددة. وقد يكتفي الباحث بعد جمع هذه المعلومات والتأكد من صحتها بتنظيمها وتصنيفها وعرضها، إذا لم يكن الموضوع مطروقاً من قبل، أو أن النتائج المتوفرة عنه قليلة ولا تسمح بالتعمق فيه، ويسمى البحث استكشافياً **exploratory**، وبخلاف ذلك فلابد أن تكون للباحث أهداف دقيقة ومحددة، وقد يصيغ هذه الأهداف بشكل فرضيات، تعبر عن الارتباطات بين الظواهر التي يراد اختبارها والتحقق من صحتها مثل: كلما ازداد التحصيل الدراسي للفرد كلما قل احتمال مخالفته للقوانين، وعادة ما يستمد الباحثون فرضيات بحوثهم من النظريات، والتي هي نماذج فكرية ذات نطاق أوسع وأشمل من الفرضيات، تشرح وتفسر ظاهرة أو مجموعة من الظواهر المترابطة مثل: نظرية اينشتاين، ونظرية النشوء والارتقاء لداروين، ونظرية الشخصية في علم النفس الاجتماعي، وتبني النظرية على استنتاجات مستمدة من بحوث سابقة، وحتى لو ثبتت صحة نتائج البحوث اللاحقة المبنية على طروحاتها فإنها تبقى مقبولة على سبيل الاحتمال لا اليقين، ولم تتأكد صحتها قطعياً، وفي حالة ظهور أدلة مناقضة لها فإنها تعدل أو تهمل.

تتحول الفرضية إلى قانون إذا أثبتت البحوث والتجارب صحتها مرةً بعد أخرى، وبينما تصح النظرية أحياناً فإن القانون صائب دائماً، وتوضع القوانين عادة في العلوم الطبيعية مثل قانون الجاذبية، أما في العلوم الإنسانية أو الاجتماعية فتتوقف إنجازات المعرفة غالباً عند النظريات، ولأن القوانين مفسرة لأسباب حدوث الظواهر مثل الزلازل والبراكين وحركة الأجرام السماوية والأمراض فإنها تتيح التنبؤ بحدوثها أو حتى منع وقوعها، وهكذا توضع

التنبؤات الجوية وتحسب مسارات الصواريخ والقذائف واستهلاك محرك من الوقود، وتصمم الطائرات والجسور وتكتشف علاجات للأمراض، لذا تعتبر القوانين أو التفسيرات السببية أرقى أنواع المعرفة.

وتشترط المنهجية العلمية أن تكون الظاهرة المبحوثة واقعية، أي موجودة في النظام الكلي للكون أو الطبيعة، ومحسوسة، ويفضل أن تكون قابلة للقياس، لذا يضع العلماء الوضعيون خارج نطاق المعرفة العلمية واهتماماتهم كل الظواهر الميتافيزيقية أو الخاصة بما وراء الطبيعة، بغض النظر عن رأيهم أو اعتقادهم الشخصي بوجودها أو عدم وجودها.

المعرفة من منظور إسلامي

يتفق المنظوران الإسلامي والوضعي حول تعريف المعرفة بأنها كيان من الحقائق المنظمة والمفسرة للكون والخلق، والتي يدركها الإنسان بالعقل واعتماد منهجية محكمة، ومن الضروري التمييز هنا بين هذا المفهوم الأصيل الشامل المستمد من القرآن الكريم والنظرة الضيقة لإتباع بعض المذاهب الإسلامية، فقد صنف هؤلاء المعرفة إلى نوعين: الشرعية وهي المنزلة أو المستنبطة من النصوص الدينية والوضعية والتي تشمل كل المعارف الأخرى، واعتقدوا بأهمية وضرورة النوع الأول، بينما اعتبروا الاشتغال بطلب الثاني مضيعة للوقت، بل انحرافاً عقائدياً يستوجب التصحيح، ونتج عن هذا الموقف الفكري المنغلق اضطهاد وقتل العديد من العلماء والفلاسفة، وإحراق مؤلفات آخرين، ولو صح هذا الاعتقاد لانتفى وجود نظام معرفي إسلامي أو حاجة لإعداد هذا الكتاب.

يتأكد بالرجوع إلى الآيات القرآنية تعدي مفهوم المعرفة العلم الديني، فمن البديهي شمول وإحاطة العلم الرباني بكل أنواع المعرفة: الدينية والوضعية، وكل اعتقاد مخالف لذلك باطل لتعارضه مع مبدأ تمام القدرة الربانية، ولو كانت المعرفة الوضعية باطلة أو مضرة أو ضرب من اللهو العقلي لنزل فيها نهي واضح، ولكن الواقع هو العكس من ذلك تماماً، كما يتبين من الآية التالية:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ [1]. ولا جدال في أن منطق الطير الذي علمه الخالق لنبيه ليس علماً دينياً أو فقهياً أو شرعياً، بل هو علم طبيعي مبهم بالنسبة للعلماء المعاصرين المختصين بطبائع وسلوكيات الطير، وإن كانوا يتفقون حول وجود اتصال بين الطيور، ويستدل من هذا البرهان القاطع على عدم اقتصار مفهوم المعرفة في الإسلام على العقائد والأحكام الفقهية.

بالإضافة إلى شمولية المعرفة تثبت النصوص الدينية مبدأ هاماً آخر، وهو حقيقة المعرفة، أي أن المعرفة –كما الكون و الخلق والظواهر الأخرى – حقيقية، وعلى النقيض من ذلك فقد ظهر تيار فلسفي وفكري يشكك في وجود المعرفة استطراداً على رفضه لحقيقة الوجود، وترجيح كونه مجرد صور أو إدراك متولد داخل العقل، إذا لا توجد أدلة مستقلة على حقيقة وجود الأشياء، وبالتالي فمن المحتمل أن يكون الكون كله حلم أو "واقع متخيل" يعيشه الإنسان ذهنياً فقط، ويقنع نفسه بوجوده، ومن الواضح بأن هذا الاتجاه متعارض مع الحاجة إلى المعرفة، ولا يحض على طلبها؛ فإذا كان الكون سراب بقيعة فما جدوى المعرفة وخداع النفس بالبحث عنها، والدليل المستقل على بطلان هذا الفكر موجود في نظام المعرفة الإسلامي، وهو الشهادة الربانية على حقيقة الوجود والخلق والمعرفة التامة أو الحقة، أي العلم الرباني، والتي تعتبره العقيدة من الأدلة الكبرى على عظمة الخالق واستحقاقه للعبادة.

أهمية المعرفة

يتبين من مقارنة الخطاب الرباني في القرآن الكريم بالأسفار الدينية لغير المسلمين المكانة المتميزة للعلم أو المعرفة في العقيدة الإسلامية، إذا يوصف القرآن الكريم كله بالمعرفة، وهي بمثابة النسيج للدين والرابطة التي تشده إلى بعضه، ومنبع قوته وتأثيره،

---

(1) سورة النمل: الآية (16).

واستيعابها هو الغاية العظمة للمؤمنين، كما أنها أيضاً الوسيلة العقلية للولوج إلى هذا النظام العقائدي وسبر معانيه وفهم مقاصده، والخطوة الأولى في السير على النهج أو الصراط العقائدي "معرفة الله والإيمان به"، والتي يجب أن يخطوها الفرد لوحده وبمجهود عقلي وفكري مبني على الوقائع المادية، إذا لابد من الإيمان بوجود الخالق الواحد قبل القبول بالمنهج الذي اختطه للخلق، ومتى ما آمن الفرد بهذا الخالق أصبح ممكناً الانتقال إلى المرحلة التالية وهي استيعاب المعرفة الربانية المنزلة بواسطة الوحي، كما أن تفرد الله بامتلاك العلم المطلق في الكمال من أبرز الحجج الدالة على أحقيته بالعبادة وحده دون غيره، وبينما تؤكد أسفار الأديان الأخرى على قوة وغضب وانتقام الإله، أو الآلهة، والتي تفرض على البشر مخافته واتقاء سطوته والتقرب إليه بالقرابين وغيرها، يحاجج الخطاب القرآني بالمعرفة التامة لله، ويستنتج ضرورة طاعة الله كما تبين الآيتان التاليتان:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [1]، ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [2].

وتشير الآية الأولى إلى علم الله، الذي وسع كل شيء في الأرض والسموات، ثم تبرر الآية الثانية استحقاق الله للطاعة على أساس اتصافه بالعلم والقدرة المطلقة، وبالنتيجة تتكون لدينا المقدمتان والنتيجة المنطقية التالية:

- الله عالم بكل شيء.
- الإنسان بحاجة إلى المعرفة.
- يتعلم الإنسان من علم الله الواسع.

ويقدم الخطاب الرباني دليلاً قاطعاً آخر على أهمية المعرفة بالنسبة للنظام العقائدي الإسلامي في تقرير القرآن الكريم عن الحوار الذي دار بين الله وملائكته بعد خلق آدم،

---

(1) سورة الحجرات: الآية (16).

(2) سورة النمل: الآية (25).

فقد آثار هذا الخلق هواجس الملائكة من إقدام آدم ونسله من البشر على سفك الدماء وإشاعة الفساد في الأرض، وقارنوا هذا الخلق الجديد بأنفسهم، واتصافهم بالطاعة لله والعصمة من المعاصي والمفاسد، فأجابهم الله بالاحتجاج بقدرة البشر على التعلم، ولو صدر اعتراض مشابه من تابع أو مرؤوس على قرار أو فعل لولي أمره أو رئيسه فلربما وبخه وذكره بأنه هو السلطة الأعلى والأقوى وصاحب الأمر والنهي، ولا يجوز لتابع ضعيف أو عديم الحول والقوى مساءلته أو حتى مناقشته، هذا إذا كان رحيماً ولم يبطش به ويأمر بسجنه أو نفيه أو طرده، أما الله، الذي لا تقارن قدراته المطلقة بقدرات مخلوقاته، فقد استجاب لهذا التساؤل بعلمية مثالية، ولم يكتفي بالإشارة إلى علمه التام، فقد برهن للملائكة وبطريقة حسية واختبارية –كما سيتبين في فصل لاحق– على قدرة البشر على التعلم، وذلك عندما قام بتعليم آدم الأسماء، ثم عرضها على الملائكة، الذين أقروا بجهلهم بها: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [1].

وبنى على هذه التجربة العلمية النتيجة التالية:

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[2]

ويتضح لنا من هذه الأدلة الأهمية القصوى للمعرفة في العقيدة الدينية، وتعديها لصلة الله بالبشر إلى علاقته بكافة المخلوقات، فالعلم أساس الخلق، ووسيلة تدبيره، والبرهان الأسمى على أحقية الله دون غيره بالطاعة، ويعود تاريخ هذا الخطاب إلى ما قبل أربعة عشر قرناً، وفي عصر كانت القوة، لا المعرفة، الأساس الأوحد للسلطة بين عرب ما قبل الإسلام، وكذلك الأمم الأكثر تطوراً مثل الروم والفرس، وهذا ما أكدت عليه اعتراضات المشككين والرافضين للعقيدة الجديدة آنذاك، واشتراطهم لتصديق الرسالة الربانية تقديم

---

(1) سورة البقرة: الآية (32).

(2) سورة البقرة: الآية (33).

البراهين المادية – لا العقلية أو المعرفية – الدالة على القوة مثل امتلاك الرسول للكنوز أو نزول الملائكة عليه جهاراً.

المعرفة حاجة أساسية

يعتبر الإسلام المعرفة حاجة كونية أساسية، ويشترك في ذلك جميع البشر، بما فيهم الأنبياء والرسل المصطفون؛ لأنها ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها، وقد بين النبي موسى (عليه السلام) هذه الحقيقة عندما ارتضى لنفسه تقمص دور المريد والتابع لعالم عارف:

(قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا [1]).

في المنظور الإسلامي يعتمد الإنسان على المعرفة في تدبير كافة أموره وإدراك مصالحه، فالمعرفة أساس الاختيار الصائب في كل قرار، وعندما يواجه الإنسان بدائل عليه أن يختار الأفضل والاصلح بينها، وبينما يكاد يستحيل الاختيار الصائب دون معرفة، تزداد احتمالات الاختيار الخطأ والتخبط مع قلة المعرفة، والمعرفة أو العلم من الخصائص المكتسبة المميزة للفرد، إذ لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

ولم تتوقف العلاقة المعرفية بين الخالق والبشر منذ أن علم آدم الأسماء كلها، وتمثلت في أبرز أشكالها بإنزال الوحي وإرسال الأنبياء والرسل، فالهدى المنزل ما هو إلا استجابة ربانية لحاجة الإنسان إلى المعرفة، وبالتحديد الأحكام والمبادئ والقيم الثابتة التي يحتاجها الإنسان لتنظيم حياته الفردية والاجتماعية، واختيار المنهج الصحيح في التفكير والبحث والاستنتاج وتنمية معارفه، وتكفي نظرة عابرة على سجلات التاريخ البشري للاقتناع بحاجة البشر إلى هذه الأحكام القاطعة والمبادئ والقيم والمثل السامية.

---

(1) سورة الكهف: الآية (66).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [1]

وأثبتت الحالات اللامتناهية من التخبط البشري وعبر عصور التاريخ المدون بطلان فرضية "الإنسان الراشد" المكتفي بما لديه من معارف وقدرات عقلية على التمييز بين الخطأ والصواب، والمصلحة والضرر، وعلى حسن الاختيار. والفرد في المنظور الإسلامي راشد أيضاً، لكن رشده محدود وعقلانيته مقيدة **bounded rationality** – وهو ما يتطابق مع المفهوم الحديث الواقعي للعقلانية – لذا فهو لا يستطيع تلمس الطريق السوي دون تعليمات ربانية، تضمنت قائمة صغيرة بالمحرمات المضرة وكل ما عداها حلال، ليس على أساس تقريري واعتباطي من قبل صاحب القوة المطلقة، بل لأنها – معرفياً ومصلحياً – "طيبة" وغير مضرة:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [2]

كما أن الالتزام بالقواعد والتعليمات المنهجية المنصوص عليها في هذا الهدى ضروري للحصول على المعرفة الحقة، وتفادي إغراءات الأهواء، التي إن لم تصرفه تماماً عن هذا السعي المهم لبقائه ومنفعته، فإنها حتماً ستسلبه الموضوعية والتجرد في الفكر والبحث والاستنتاج.

المعرفة نعمة

يصف القرآن الكريم المعرفة المنزلة بالنعمة:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [3]

---

(1) سورة النحل: (الآية (90).

(2) سورة المائدة: الآية (4).

(3) سورة المائدة: الآية (3).

وتطلق تسمية النعمة – عادة – على المنافع أو الموارد الموجودة في الكون، والتي سخرها الله لفائدة مخلوقاته وتهيئة سبل البقاء والتطور لهم، مثل: الهواء والماء والأرض والنبات والمعادن:

(لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً) [1]

كما أن العون أو التوفيق الرباني نعمة أيضاً؛ فبدونه لا تتحقق النتائج المرجوة، وما نصرة الله للمؤمنين المدافعين عن عقائدهم ومصالحهم إلا نعمة، وكذلك السلم وإفشال المؤامرات العدوانية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) [2]

وبعد تبليغ الإنسان بهذه المعرفة واجه الاختيار بين الإيمان أو الكفر بها:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) [3]

وإذا كان تلقي المعرفة الربانية وتطبيقها والاستفادة منها نعمة، فإن رفضها وما يجره ذلك من سلوك السبل غير السوية ونتائج وبيلة أخرى إبطال أو إهدار للنعمة؛ لأن النعمة العقائدية لازمة للاستفادة الصحيحة من النعم الأخرى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) [4]

---

(1) سورة لقمان: الآية (20).

(2) سورة المائدة: الآية (11).

(3) سورة الإنسان: الآية (3).

(4) سورة إبراهيم: الآية (28).

إن وصف الهدى أي المعرفة المنزلة بالنعمة سبق مذهل للإسلام، فحتى زمن الرسالة كانت المعرفة محدودة، بل إن مفهوم العلم كان مجهولاً وغير متداول بين العرب والكثير من الأقوام المعاصرة، وإن كانت توجد معارف متفرقة بشكل فلسفة وقواعد للمنطق ومبادئ للحساب والفلك وغيرها، إلا أنها لم تشكل حتى لدى الشعوب المتقدمة معرفياً – مثل: الإغريق والفرس والهنود وسكان العراق الأوائل – تراكماً ضخماً يستحق إطلاق مصطلح العلم أو المعرفة المنظمة عليه، كما نتجت هذه المعرفة القليلة نسبياً من الملاحظة والخبرة المتوارثة وليس نتيجة تفكير منهجي وبحوث هادفة ورصينة، فعلى سبيل المثال لم يتعدى علم الفلك في ذلك الزمان القليل من المعرفة حول مواقع الكواكب والنجوم في فصول السنة، والاستدلال منها على الاتجاهات الأربعة، وتداول قادة القوافل وربابنة السفن هذه المعرفة التي تعلموها على الأغلب من آبائهم وأجدادهم أو رؤسائهم. وبشكل عام، فإن معظم المعارف الكلاسيكية ناتجة عن ممارسة حرفة أو مهنة، ولم يسمها أحد من هؤلاء القدماء نعمة، حتى جاء الإسلام ورفع مكانة المعرفة إلى مصاف الحاجات الأساسية من حيث أهميتها وضرورتها، واعتبرها النعمة الأعظم التي تتيح للإنسان إشباع حاجاته والاستفادة من بقية النعم.

خصائص المعرفة

يختص العلم الرباني بصفات معينة، والتي هي من المنظور العقائدي "الخصائص المثالية للمعرفة"، وعلى عكس النماذج المثالية التي يصيغها المنظرون في العلوم الإنسانية، أمثال نموذج البيروقراطية للمفكر ماكس فيبر، لدراسة الظواهر الاجتماعية والسلوكية فإن هذا النموذج – وحسب اعتقاد المؤمنين – موجود بالفعل، ولكنه وكما في حالة النظم المثالية الأخرى محال وممتنع على البشر، وتكمن فائدته العلمية في كونه مصدراً أو مرجعاً لمواصفات ومعايير المعرفة كما يجب أن توجد عليه في الحالة المثلى. وبالتالي، فإن على العلماء والباحثين وضع هذا النموذج نصب أعينهم عندما يبنون نظرياتهم ويصممون اختباراتهم ويضعون استنتاجاتهم. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الاعتقاد بوجود معرفة كاملة في

هذا الكون – حتى لو كانت بعيدة عن منال العلماء والباحثين، ومهما أوتوا من قدرات عقلية وتقنيات بحث متطورة – تلغي كل حدود المعرفة وتوسع آفاقها نحو اللانهاية، وتدفع الإنسان على المثابرة في طلب المعرفة حتى آخر لحظة في الوجود.

يتفق نموذجا المعرفتين "الوضعية والإسلامية" حول استهداف فهم الظواهر من خلال البحث عن أسبابها أو عللها، فلا يتحقق الإيمان بأن وراء الخليقة خالق دون معرفة، فهي إذاً عملية فهم لعلاقة سببية **cause-effect relationship** وهذا النوع من الفهم هو الهدف الأسمى للمعرفة الوضعية. لكن تختلف المعرفتان حول السبب الأول، إذ يعتقد العلماء الوضعيون بأن سلسلة الأسباب أو العلاقات السببية تبدأ في الطبيعة، وأن الظواهر ناتجة عن الآليات أو الديناميكيات الداخلية للطبيعة – مثل: التفاعلات الكيمائية أو الطبائع الفيزيائية للمواد –، وإن كان الكثير من هذه التفاعلات أو الخواص مجهولة أو غير متفق عليها، فالجدل حول نظريات أصل الوجود وتفسير نشوء الخلق – كنظرية الانفجار الكبير **Big Bang Theory** مثلاً – يعود باقتناعهم إلى قصور الأدلة اللازمة لإثبات أو دحض هذه النظرية أو تلك، ولكنهم متفقون من حيث المبدأ حول إمكانية التحقق وبصورة نهائية في يوم ما من صحة أحد التفاسير وفي داخل النظام الطبيعي، وبالمقابل تعزو المعرفة الدينية كافة الظواهر الأولية – مثل: وجود الكائنات الحية، والأجرام السماوية، وغيرها – إلى خلق الله بصورة مباشرة، وحتى الظواهر الثانوية أو المتولدة – مثل: نتائج التفاعلات الكيماوية في الطبيعة أو المختبر – هي بقدرة الله، الذي أوجد الظواهر والعناصر وطبائعها وخصائصها، بما في ذلك قابليتها للتفاعل أو عدم التفاعل مع غيرها، وليس لهذا الاختلاف الفكري أهمية فعلية مادام العلماء الوضعيون غير قادرين على إثبات أن المصدر الأول للأسباب أو العلل كامن في الطبيعة حتماً وليس في قوة كونية عظمى.

يترتب على الاعتقاد بوجود علة ميتافيزيقية ما وراء الطبيعة نتيجتان: أن تكون العلاقة السببية مرتبطة بهذه العلة بصورة مباشرة، أو أن يكون هذا الارتباط غير مباشر، ويقضي الاعتقاد بالعلاقة المباشرة أن يكون التدبير الرباني للكون متواصلاً وتفصيلياً وآنياً – أي: أن

الخالق يوجد الظاهرة وخواصها وكل حالة من حالاتها المستقلة والمتحدة والمتفاعلة، وبالتالي فإن تدبيره لعمليات الخلق مستمر ومتواصل، ولعل الناس في القدم – والذين لم تنتشر بينهم الديانات السماوية – استنتجوا بأن إله واحد غير قادر على التدبير المتواصل للخلق وحده، لذا آمنوا بتعدد وتخصص الآلهة، فكان لدى الإغريق – على سبيل المثال – رباً للحرب وآخر للبحر وأخرى للخصب. ويهدم الاعتقاد بتعدد الآلهة، وكون إرادتها سبباً مباشراً لحدوث الظواهر – القاعدة المادية للمعرفة، وبالتالي، ضرورة المعرفة والحاجة لها؛ فمادامت أيدي الآلهة وراء كل شيء فلا توجد إذن معرفة ليبحث عنها الإنسان ويتعلمها، فكلما تساءل أحد عن سبب ظاهرة ما سيأتيه الجواب حالاً وبدون تفكير بأن تلك إرادة أو فعل هذا الإله أو تلك الآلهة. وتختلف العقيدة الإسلامية عن هذه الأديان في الإيمان بأن التدبير الرباني للكون متحقق من خلال وضع سلاسل العلل أو الأسباب في الطبيعة، وترد في القرآن الكريم إشارات واضحة إلى وجود نظام كوني تتحدد من خلاله طبائع وقابليات عناصره والقوى المتواجدة فيه، والتي تشكل بدورها أسباباً أو عللاً للظواهر الطبيعية والسلوكية. وتصف إحدى الآيات القرآنية بأن الله أوحى للنحل طريقة حياتها أو سلوكها: كبناء بيوتها في الجبال والأشجار وإنتاج العسل، ويقصد بالوحي هنا الطبيعة التكوينية والوظيفية والتكاثرية للنحل:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [1]

وتبين آية أخرى بأن الله استن وبنفس الطريقة قوى وقوانين لتنظيم حركة الأجرام والظواهر السماوية:

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [2]

---

(1) سورة النحل: الآية (68).

(2) سورة فصلت: الآية (12).

كما أن فطرة البشر – أي: القدرات والميول الغريزية التي يمتلكونها عند الولادة – مثل التفكير والاستعداد للتكاثر، ناتجة أيضاً عن الوحي أو الإرادة والتدبير الرباني، الذي اختار للإنسان وغيره من المخلوقات والكائنات خصائصهم، مع وجود القدرة الربانية على تغيير الخلق وهذه الخصائص متى ما شاء ذلك. ويوصف هذا الخلق بأنه "أحسن تقويم"، لذا لا يحتاج إلى تعديل في الصنع أو الفطرة، ولم يلغى تماماً –كما تفعل مصانع السيارات من حين لآخر بمنتجاتها – وتنطبق هذه القاعدة على كل الخلق:

﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [1]

ولو كان في الخلق فطور أو خلل أو نقص بدلاً من الانتظام والتناسق، لتطلب الإصلاح والصيانة بين حين وآخر أو إعادة التصميم والخلق؛ منعاً للتداعي واحتمال الفناء، كما حدث مثلاً للحضارات البشرية القديمة، التي لم تبق منها سوى الأطلال، وهذه كلها دلالات على وجود نظام كوني تتحكم به قوانين وارتباطات محكمة وثابتة ومتجانسة، والتي بدونها تتفشى الفوضى ويدب الفساد في الخلق. وهدف المعرفة هو اكتشاف القوانين الثابتة في هذا النظام الكوني، ولولا هذا النظام لكانت كل ظاهرة فريدة في نوعها وحدوثها، ولأصبحت عملية البحث عن المعرفة عبثاً مطبقاً.

الشمولية والإحاطة

يستوجب اعتماد المعرفة الربانية كنموذج مثالي استهداف الإحاطة أو الشمولية في المعرفة، فالشمولية التامة صفة أساسية من صفات العلم الرباني:

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ [2]

---

(1) سورة الملك: الآية (3).

(2) سورة الأنبياء: الآية (81).

(أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [1]

وتحيط هذه المعرفة أو العلم بكافة الظواهر الكبيرة والصغيرة:

(وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) [2]

كما تحتوي هذه المعرفة العلم بالظواهر والأسباب الخفية التي لا يمكن إدراكها بصورة مباشرة:

(قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [3]

بينما لا تتعدى المعرفة البشرية الظواهر المحسوسة في الكون:

(وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ، يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) [4]

وتقدم الآية القرآنية صورة معبرة وبليغة عن هذه المعرفة المحيطة واللامتناهية:

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً) [5]

فلا يوجد بالتالي علم خارج عن هذا العلم اللامحدود أو زائد عليه؛ لأنه يشمل الكون كله، ويلم بوقائع الماضي وأحداث الحاضر وما سيطرأ في المستقبل.

---

(1) سورة المائدة: الآية (97).

(2) سورة الأنعام: الآية (59).

(3) سورة الفرقان: الآية (6).

(4) سورة الروم: الآيتان (6–7).

(5) سورة الكهف: الآية (109).

وترتبط الإحاطة أو الشمول بخاصية أخرى للعلم الرباني وهي "الصحة التامة"، ولا ضمان للصحة بصورتها المطلقة بدون إحاطة، فمن البديهي أن تتطلب معرفة الظاهرة الجزئية دراستها بتمعن ودقة، ولكن لا تكون المعرفة المتحصلة بهذه الطريقة كاملة وصحيحة تماماً إلا إذا اقترنت المعرفة بالتفاصيل مع المعرفة الكلية – أي معرفة الكل الذي يحتوي الظاهرة الجزئية فيؤثر فيها ويتأثر بها، وهذا ما دعت إليه نظرية النظم الكلية Total Systems Theory التي سعت إلى تصحيح أو تكملة تركيز البحث في العلوم الوضعية على الجزئيات ودقائق الأمور من خلال تأكيدها على ضرورة تبني النظرة الشمولية والمحيطة، مما يشكل تحدياً كبيراً للعلم بإمكانياته ووسائله الحالية.

المعرفة تكوينية وفكرية وتطبيقية

يستدل من الآيات القرآنية على وجود ثلاثة أنواع من المعارف: تكوينية وفكرية وتطبيقية، ولا يمتلك المعرفة التكوينية سوى الخالق الذي له القدرة المطلقة على الخلق، وهذا ما تذكر به الآية التالية:

(هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ) [1]

فالاستنتاج بتفرد الله بالمعرفة التكوينية المتعلقة بالبشر قائم على أساس كونه خالقهم من الأرض ابتداءً، ومن ثم بالتوالد. وينتج عن هذه المعرفة التكوينية دراية تامة بخصائص ووظائف البشر، وأقرب مثال توضيحي على ذلك – مع التبسيط الشديد – الزّجاج، أو صانع القوارير وإنتاجه من القوارير، وبافتراض امتلاكه لمهارات حرفته، فإن الزّجاج أدرى الناس بالمواد المستعملة في صناعتها، وبخصائص تقنية التصنيع – مثل: الأدوات اللازمة، ودرجة الحرارة المناسبة لصهر وتشكيل الزجاج –، كما أنه أعلم من غير الزّجاجين بمواصفات القوارير التي يصنعها – مثل: درجة متانتها ومقاومتها للمواد الحامضة والكاوية.

(1) سورة النجم: الآية (32).

لذا، فإن الله – الذي لا يشبهه شيء – أعلم من البشر بأنفسهم وخفايا نفوسهم وسلوكهم؛ لأن ﴿اللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [1].

وتتيح هذه المعرفة التكوينية، ليس فقط خلق الأشياء، بل كذلك تعطيل وتبديل كل أو بعض خواصها – أي: إعادة التكوين، وتكشف الآيات القرآنية عن جوانب من هذه القدرات المعرفية العظمى في عرضها لثلاث كينونات مختلفة الصفات لظاهرة واحدة هي النار، أولها: حقيقة النار كما نعرفها والتي هي مصدر طبيعي للطاقة الحرارية ذات الاستخدامات المتعددة في المنازل والمصالح، ولو وضع أحدنا يده في هذه النار لاكتوت بها. لذا، فلقد كان من المتوقع على أساس هذا القانون الطبيعي لحقيقة هذه النار وتأثيراتها وفاة النبي إبراهيم (عليه السلام) على المحرقة التي نصبها له قومه لخروجه على دينهم وتحطيمه أصنامهم، لولا أن الله شاء – وبقدرته التكوينية – أن ينجيه من خلال تغيير أو تعطيل خاصية الحرق للنار التي أضرموها:

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [2]

كما نجد كينونة ثالثة للنار خارجة على مفهومنا الأرضي للنار في آية قرآنية أخرى:

﴿فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [3]

ولا تكون المعرفة كاملة وذات مغزى واسع إذا لم تتضمن الأطر الفكرية – أي: التفسيرات العامة والعلاقات السببية، التي تشرح هذه المعرفة وتبين موقعها في الهيكل المعرفي العام. ومادامت الظواهر وأسبابها ونتائجها حقيقية ومدركة بالحواس أو العقل، فلابد أن تكون الأطر الفكرية المفسرة لها موجودة أيضاً، وأن خفيت على الإنسان، ويستند

---

(1) سورة المجادلة: الآية (11).

(2) سورة الأنبياء: الآية (69).

(3) سورة النمل: الآيتان (8–9).

هذا الاعتقاد أصلاً إلى الوحي التكويني الرباني، الذي أوجد النظام والتنظيم في الكون، وجعل الفوضى ظاهرة استثنائية، فلا الظواهر منفردة وغير مترابطة ولا الفوضى دائمة.

بالإضافة إلى العناصر التكوينية والفكرية يحتوي العلم الرباني المعرفة التطبيقية أو العملية، وهي التي تبين كيفية الاستفادة من المعرفة في حياة الإنسان، فالحقائق المعروفة عن أسباب حدوث الاحتراق والعوامل المؤثرة في هذه الظاهرة هي معرفة فكرية أو خالصة pure knowledge، أما استخدامات هذه الحقائق في توليد الطاقة والصناعة فهي معرفة تطبيقية applied knowledge، وهي مبنية على المعرفة الفكرية، وتورد بعض الآيات القرآنية أمثلة على هذا النوع الثالث من المعرفة:

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ [1]

﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [2]

﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ [3]

وتربط الآية التالية وبصورة جلية ودقيقة بين المعرفة الفكرية الخالصة المستمدة من علم الكتاب وبين القدرات العملية، والتي تفوق في هذه الحالة حدود المعرفة البشرية الراهنة:

﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [4]

---

(1) سورة الأنبياء: الآية (80).

(2) سورة سبأ: الآية (10).

(3) سورة سبأ: الآية (12).

(4) سورة النمل: الآية (40).

الفصل الثاني
العقل والتعلم ومراتب المعرفة

لا توجد معرفة بدون عقل، فالمعرفة هي نتاج عقلاني، والعقل هو وسيلة الفرد في استقبال وإدراك وفهم المعرفة القرآنية والعمل بموجبها وتطبيقها. وتعرّف الآيات القرآنية بوظائف العقل ودوره في إدراك الظواهر وتحليلها والتوصل إلى الاستنتاجات الصحيحة بشأنها، وتبين قدرة العقل على التعلم وضرورة انفتاحه على المعرفة، وتحذر من حالات الانحراف عن العقلانية والسقوط في الجهل وأسبابه من التحيزات والأهواء، وينتج عن تفاعل وتجاذب هذه المؤثرات على العقل مراتب متفاوتة من المعرفة، وهذه هي أبرز الموضوعات التي يتضمنها هذا الفصل.

العقل من منظور كلي

إن أساس الإيمان بالعقائد الدينية عملية اتصال بين مصدر هذه العقائد – أي: الإله الخالق، والبشر، ومادة هذا الاتصال هي الوحي الرباني الذي يبين العقائد والمبادئ والتعاليم الدينية. ومن البديهي أن تتطلب عملية الاتصال وجود متصل ومتلقي، والمتلقي في هذه العملية هو العقل البشري، فالوحي هو خطاب موجه للعقل البشري بواسطة حملة أو ناقلي الوحي، وتنتفي عملية الاتصال برمتها لو لم يوجد المتلقي، أو كان عاجزاً عن ذلك، لذا تستدعي كفاءة الاتصال حداً أدنى من العقلانية أو جدارة العقل البشري. وترد في القرآن الكريم آيات عديدة دالة على أن الخطاب الرباني موجه للعقل مثل التالية:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [1]

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [2]

---

(1) سورة الروم: الآية (24).

(2) سورة يوسف: الآية (111).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [1]

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [2]

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [3]

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [4]

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [5]

ويستدعي إدراك الحقائق الدينية الثابتة – مثل: وحدانية الله وقدرته المطلقة وغيرها من العقائد والاقتناع بصحتها – الإيمان بوجود الله أساساً، وضرورة هذا الوجود؛ من خلال الربط العقلاني بين الظواهر الكونية – مثل: خلق السموات والأرض، وتسخير النعم للبشر ووجود الخالق، وبدون توسط العقل وتوظيفه بطريقة صحيحة من حيث الإدراك والتحليل، فإن من المستحيل بلوغ هذا الاستنتاج، والذي يمثل الخطوة الأساسية في الإيمان والولوج إلى عالم المعرفة وفق المنظور الديني، ويكون العقل بعدها مستعداً للانتقال من حالة الجهل إلى حالة المعرفة:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [6]

---

(1) سورة آل عمران: الآية (190).
(2) سورة البقرة: الآية (179).
(3) سورة البقرة: الآية (269).
(4) سورة الجاثية: الآية (13).
(5) سورة العنكبوت: الآية (43).
(6) سورة التوبة: الآية (6).

ويوصف المشركون هنا بأنهم (قوم لا يعلمون)؛ لأنهم لم يسمعوا الهدى الرباني ويتعلموا منه، والسمع هو وسيلة العقل في عملية إدراك الوحي، وتكتمل عملية الاتصال بين الله والإنسان عندما يبدي الفرد جوابه أو رد فعله على الاتصال؛ إما بالتصديق أو الرفض:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (1)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) (2)

فالعقل هو وسيلة الإنسان لتلقي الرسالة الربانية والتفكر بها، ومن ثم اتخاذ موقف منها، ويعتبر الخطاب الديني التصديق بهذه الرسالة الإحيائية موقفاً "عقلانياً"، صادر عن أولي الألباب، ذوي العقول المستنيرة، الذين يستمعون للرسالة الربانية وغيرها ويفاضلون فيما بينها، ثم يتبنون ويتبعون أحسن هذه البدائل – أي: الرسالة الإلهية –، وكل هذه صفات أو خصائص للحالة العقلانية ومعبرة عنها، وبالمقابل فقد وصم الخطاب الديني المكذبين والمشككين في صحة وجدوى الرسالة باللاعقلانية والجهل، لأنهم لا يتفكرون ولا يعلمون ولا يعقلون:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (3)

(ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) (4)

فالعلم والإيمان صنوان لا يفترقان في النظام المعرفي الإسلامي، فالمؤمن هو عالم، والذي يعلم لابد أن يؤمن متى ما تقبل الهدى، أما الذي لا يعلم فمن المحتم أن يكون كافراً أو مشركاً حتى لو سمع الهدى واستوعبه، وحتى يمكن التمييز بين العقلانية أو

---

(1) سورة الإنسان: الآية (3).

(2) سورة الأنفال: الآية (24).

(3) سورة سبأ: الآية (28).

(4) سورة الجاثية: الآية (18).

المعرفة العقلانية rational knowledge، واللاعقلانية أو الجهل العقلاني irrational ignorance، في المنظور المعرفي الإسلامي، لابد من استبعاد المفاهيم والتعاريف التقليدية أو تلك المرتبطة بالعلوم الوضعية، ويمكن تعريف العقلانية الإسلامية بأنها تمحيص الأمور والتمييز بين الصواب والخطأ، العدل والظلم، المنفعة والمضرة، وتقتضي هذه القدرة العقلانية اقتران أو تزاوج العقل بالهدى الرباني، وهذا شرط لازم لذلك، إذ لا يكفي أن يكون الإنسان عاقلاً، فمهما بلغت قدراته العقلانية أو درجة ذكاءه ومعلوماته، فقد يخطأ في التحليل والاختبار؛ لأنه يحتاج إلى الهدى الرباني كمرجع للتعرف على المبادئ والأسس والمنهجية، التي ينبغي عليه الالتزام بها في كل عملية تحليل أو اختبار. ومن جهة أخرى، فإن الهدى الرباني غير كاف بدون العقل المتلقي والمستجيب، مع التأكيد على القدرة الربانية بحمل الناس على الإيمان، وما يتطلب ذلك من تغيير خلقي في البشر، تتعطل بنتيجته قدرتهم على الاختيار والإرادة، ويصبحوا مسيرين بالمشيئة الربانية، وهذا متعارض مع ما استنه الله لنفسه وللخلق.

ويمتنع الجاهل أو اللاعقلاني عن الاستجابة للهدى الرباني بسبب دوافع ذاتية – وليس نتيجة قصور عقل موروث أو طارئ – تمليها عليه ترسبات فكرية منحرفة، تشوه أو تحرف إدراكه ونظرته للأمور، وتجعله غير قادر على التمييز والتقييم المجرد والموضوعي، وهو ما يصفه النظام المعرفي الإسلامي بإتباع الأهواء، والهدى الرباني – كما يتضح من مسماه – هو بمثابة الدليل الذي يقود العقل من حالة الجهل أو ضعف التمييز إلى حالة المعرفة والقدرة على التمييز:

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [1]

---

(1) سورة المائدة: الآيتان (15–16).

والعقل هنا ليس عنصراً خاملاً، فهو بذاته قوة فعالة يمكن أن ترتد على الوحي نفسه، فترفضه أو تكذبه تحت تأثير الفكر المضاد أو اعتبارات المصلحة الضيقة – وكما سيتبين في جزء لاحق من هذا الفصل –، ولكن قبل التطرق لذلك لابد من استطلاع مفاهيم أساسية حول العقل في النظام المعرفي الإسلامي في مقدمتها العقل الفطري والتعلم.

العقل الفطري

أهتم الفلاسفة والمفكرون والمربون وعلماء النفس المعاصرون بفهم العقل البشري ووظائفه ومراحل تطوره ونموه وأمراضه، وأهمية هذه الموضوعات بديهية لا تحتاج إلى براهين مقنعة؛ لأن العقل أثمن ما يمتلكه الإنسان، وما يميزه عن الكائنات الحية الأخرى. وقد خص هؤلاء المفكرون والعلماء بالدراسة والتحليل حالة العقل عند الولادة، وتساءلوا: إن كان الإنسان يرث معرفة أبويه أو سلالته كما يرث صفاتهم الخلقية الأخرى مثل لون البشرة وملامح الوجه وغيرها؟ ويرد إلى الذهن مباشرة مقولة الفيلسوف "رينيه ديكارت" بأن عقل الإنسان صفحة بيضاء لا خط عليها عند الولادة tabula rasa، وقد أكدت نتائج البحوث والدراسات صحة هذه الفرضية، فقد يرث المولود شيئاً من ذكاء أبويه، لكنه بالتأكيد لا يرث معارفهما العلمية أو التاريخية أو الجغرافية أو الاجتماعية وغيرها، لذا يصح القول بأنه يولد بقدرات عقلية ولكن بذاكرة خالية من المعرفة والمعلومات، لذا فإن نقطة الصفر العقلي هي لحظة الولادة المدونة في سجلات المستشفى، وقد سبق القرآن الكريم الجميع إلى تسجيل هذه الحقيقة في الآية التالية:

﴿اللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [1]

ويتضح من هذه الآية ولادة الإنسان بدون علم أو معرفة، وإنما لديه الوسائل الكفيلة بالحصول على ذلك، وهي: الحواس والعقل، ولو أشار القرآن إلى أحدها فقط لكان ذلك

---

(1) سورة النحل: الآية (78).

نقصاً فادحاً، كما اعتبر توفير هذه الوسائل منّة عظيمة تستوجب الشكر؛ لأنها تمكن الإنسان من تحصيل واستيعاب المعرفة.

إضافة إلى القدرات العقلية، يولد الإنسان – وفق المنظور الديني – على فطرة محددة أو طبيعة تتوافق وتتجانس مع الدين التوحيدي، الذي دعا له الإسلام ومن قبله الأديان السماوية، وكما تبين الآية التالية:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [1].

والفطرة هي طبيعة ثابتة وغير قابلة للتغيير والتبديل، وذلك لأن تغيير هذه الخاصية سيبطل وظيفتها ويعطلها ويجعلها سلبية أو غير ذات قيمة – مثل: تغيير حركة الشمس أو عقارب الساعة –، كذلك فإن عبادة غير الله انحراف أو خروج على الفطرة. وينتج عن اقتران المفهومين – أي: انعدام المعرفة عند الولادة والفطرة التوحيدية – تصور أوضح لمفهوم ودور العقل في النظام المعرفي، إذ تختلف الفطرة التوحيدية التكوينية عن الخصائص الفطرية العضوية – مثل: الحاجة إلى الغذاء والدفء والتكاثر – في كونها عقلية وليست عضوية، ولا يمكن أن تدرك إلا عقلياً، والعقل الخالي من المعرفة غير قادر على ممارسة هذه الفطرة. وهنا يبرز دور العقل الحيوي في التوصل إلى ذلك، وذلك من خلال تهذيب الحواس والسيطرة على الأهواء حتى يصبح بالإمكان استيعاب الوحي الرباني والاستجابة له.

التعلم

اعتبر نظام المعرفة الإسلامي التعلم أهم خصائص العقل البشري، والتي بدونها يتعطل دوره، فقد نصت العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على ضرورة التعلم، وتصور بعضها الخالق في دور "المعلم":

---

(1) سورة الروم: الآية (30).

﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [1]

وفي آية أخرى من نفس السورة يأمر الله رسوله بالقراءة، ولا يأمر الله إلا بما هو خير للناس أجمعين:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَق، خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [2]

فلا شك في امتلاك النبي – من المنظور الديني – معرفة تامة بأصول الدين والتعاليم الدينية، فهو المتلقي الأول للرسالة والهدى الرباني، ولولا قدراته العقلية وانضباطه الكبير وأخلاقه ما اختاره الله لحمل الرسالة وإيصالها وشرحها للناس، فمن الضروري أن يتفوق في معرفته الدينية على معارف البشر الآخرين؛ لأن هؤلاء سيقصدونه بأسئلتهم، ويتوقعون منه إجابات محددة وواضحة عليها، ولن يكون من المقبول اعتذاره بجهله بأمور الدين. وقد وجه المؤمنون وأتباع الديانات الأخرى أسئلة عديدة للرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، وكان يجيب عليها في حينها أو يطلب إمهاله حتى تلقي الوحي بشأنها، فيما عدا الأسئلة الخاصة بالأسرار الربانية مثل: معرفة الغيب.

وتدل الآيات القرآنية على امتياز الأنبياء والرسل بمعرفة خاصة، يطلق عليها العلم والحكمة، يكتسبونها بطريقة مباشرة من عند الله، وعلى خلاف الطرق الاعتيادية للتعلم، وكما تبين الآية التالية التي تخاطب النبي عيسى (عليه السلام):

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [3]

---

(1) سورة العلق: الآيتان (4–5).

(2) سورة العلق: الآيات (1–3).

(3) سورة المائدة: الآية (110).

وبالإضافة إلى ذلك، فإن هؤلاء المصطفين بشر مثل غيرهم، وبالتالي فإنهم أيضاً يتعلمون بالطرق المعهودة، ولكونهم قدوة للآخرين، فقد بينوا أهمية وضرورة التعلم وطرق التعلم، ويتضح من الآيات القرآنية بأن حب المعرفة والرغبة في التعلم من صفات الأنبياء والمرسلين، فقد سأل النبي إبراهيم (عليه السلام) ربه أن يريه كيفية إحياء الموتى، فبرهن له من خلال تجربة حسية على قدرته المطلقة على إحياء الموتى، وكان الدافع وراء سؤال النبي موسى (عليه السلام) رؤية الله حب المعرفة، فتجلى الله للجبل ليثبت له بأنه موجود ولكن لا تدركه الأبصار:

(لَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) [1]

كما ارتحل موسى (عليه السلام) طلباً للتعلم، وأصر على ذلك على الرغم من تحذير معلمه من صعوبة هذه العملية:

(قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا) [2]

ولم يكتفي موسى (عليه السلام) بالمشاهدة، بل طلب من معلمه شرح وتفسير قراراته وأفعاله ليفهمها.

وتحث الأحاديث والسيرة النبوية في الإسلام على التعلم وطلب المعرفة ولو كانت في الصين، وعلى استمرارية التعلم من الولادة حتى الممات، كما رفعت من شأن وقيمة المعرفة حتى ساوت بينها وبين الحرية، التي كانت وما زالت من أثمن صفات البشر، وذلك عندما

---

(1) سورة الأعراف: الآية (143).

(2) سورة الكهف: الآيات (66-68).

أعطى الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) الأسرى الكفار الفرصة لشراء حريتهم مقابل تعليم عدد من المسلمين القراءة والكتابة. ولابد من التذكير هنا بأن إنزال القرآن الكريم هو بحد ذاته دعوة للتعلم، فالقرآن كتاب، ولن يستطيع مسلم دراسة آياته وحفظها وتعلمها دون معرفة بالقراءة والكتابة ومعاني الكلمات وغير ذلك من المعارف العقلية الضرورية. ويجعل الاختيار الرباني للكلمة المكتوبة – بدلاً من النقل الشفهي الأوسع انتشاراً واستعمالاً في ذلك العصر– كوسيلة لمخاطبة البشر من التعلم واجباً محتماً على المسلمين، وإذا كان ذلك فرضاً في تلك الفترة، التي اتصفت بندرة المتعلمين، فإن من المنطقي تنامي أهمية التعلم مع ازدياد عدد المتعلمين، وإدراك الناس لأهمية المعرفة وانتشار مؤسسات التعليم.

والشورى التي أمرت بها الآية التالية: (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) [1] هي في جوهرها عملية تعلم؛ لأنها تستند إلى مبدأ تعدد وغزارة التجارب والمعارف البشرية، وقد لا يكون ما لدى عقل بشري واحد من معرفة ودراية وقدرات تحليلية كافياً للتوصل إلى قرارات صائبة دائماً. وتتيح الشورى مشاركة أكبر عدد من الأفراد في دراسة وتحليل المسألة واختيار أفضل بدائل القرار بشأنها، وعندما تتشاور مجموعة من الأفراد حول مسألة ما يتعلم كل واحد منهم من الآخرين، بافتراض استعداده للتعلم وانفتاحه على معارف وتجارب الآخرين، واتساع صدره لآرائهم وأفكارهم المغايرة لمعتقداته وآرائه.

التعلم أولى التجارب البشرية

لو سألت مجموعة من أتباع الديانات السماوية عن أول تجربة بشرية عند بدء الخلق لأجابك العارفون منهم بأنها تناول آدم من ثمار الشجرة المحرمة استسلاماً لغواية الشيطان وعصياناً لأمر الله، ويقص علينا القرآن الكريم حدثاً آخر ذي مدلولات كبيرة في فهم غاية الخلق ونظام المعرفة القرآني وأهمية التعلم، ويبدأ هذا الحدث بتساؤل الملائكة عن مغزى

---

(1) سورة آل عمران: الآية (159).

خلق أدم والجنس البشري الميال إلى الإفساد، وتبين الآية التالية الرد الرباني المفحم على ذلك:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [1]

وهكذا فإن البرهان الأمثل على جدوى خلق آدم هي قدرته على التعلم، ويستدل من ذلك على الأهمية العظمى لهذه القدرة، وكونها الخاصية الأساسية والمميزة للجنس البشري في نظام المعرفة الإسلامي، وقد أثبتت التجارب الإنسانية – وعلى مر العصور – الصحة المطلقة لهذا القانون الرباني، فعندما أهملت الأمم التعلم توقفت عجلة الحضارة والتطور، أو حتى تراجعت إلى الوراء، أما الذين آمنوا بهذه الحقيقة من الأمم والأفراد وعملوا بها فقد جنوا فوائد جمة على كافة الصعد الجماعية والفردية.

مراحل التعلم

تشير الآيات القرآنية إلى مرور العقل البشري بعدة مراحل من التطور أو التدهور، تتفاوت فيها استعداداته لتقبل الوحي الرباني واستيعاب المعرفة، وتذكر قصة النبي يوسف (عليه السلام) بأن حصوله على الحكمة والعلم من الله كان موقوتاً:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [2]

---

(1) سورة البقرة: الآيات (31–33).

(2) سورة يوسف: الآية (22).

ومن المحتم أن يكون هذا التوقيت مسبباً وتام الصحة، وليس من باب الصدفة اختيار هذا التوقيت، بل لابد أن يكون أمثل الأوقات، مقارنة بما سبقه أو يليه من أوقات. وتحدد آية أخرى عمراً معيناً، وهو الأربعين، لبلوغ الفرد مرحلة من النضح العقلي والاستعداد العقائدي:

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [(1)]

ويستدل من هذه الشواهد على مرور العقل البشري بمراحل تتطور فيها قدرته على الإدراك والفهم والاقتناع بالهدى والعمل به، وتنتهي هذه المراحل عند "أرذل العمر" التي تتوقف فيها عملية التعلم، بسبب ما ينتاب البدن من ضعف والعقل من وهن، إذ تتدهور كفاءة الذاكرة، وقد يصاب بالخرف فيفقد القدرة على التمييز بين الأمور أحياناً:

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [(2)]

قصور الإدراك والفهم

يكتسب الفرد المعرفة ويهتدي إلى العقيدة بالعقل، فإذا غاب العقل فقد الإنسان القدرة على التعلم، والعقل معرض لشتى أنواع التأثيرات، العضوية والنفسية، وتشخص الآيات القرآنية حالات قصور العقل في الإدراك والفهم مثل السفه والانغلاق الفكري والختم والطبع على العقل، وتبين مظاهرها وتحذر من السقوط فيها وما ينتج عن ذلك من خسائر روحانية ومادية.

---

(1) سورة الأحقاف: الآية (15).

(2) سورة الحج: الآية (5).

السفه

يعرف السفه بأنه قله العقل والتدبر، والسفيه هو الفرد غير القادر على الاختيار الصائب دائماً، وخاصة في المسائل الشائكة والصعبة، وقد يكون سبب ذلك ضعف عقلي جيني أو موروث، أو مصدره اضطراب عقلي أو نفسي حاد، ولكن قد يكون السفه أيضاً سلوكياً ناتجاً عن إتباع منهجية خاطئة، فعندما يختار الإنسان بصورة عشوائية، دون الاستناد إلى معرفة كافية وتحليل عميق أو اعتماداً على معلومات غير صحيحة يزداد احتمال الخطأ في اختياراته وقراراته، وتوصف طريقته بالسفه، ولا يشترط أن تكون كل قراراته سفيهة أو خاطئة، وضرب القرآن الكريم أمثلة على هذا السفه، كما في الآية التالية:

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) [1]

فالسفه هنا ليس موروثاً أو عضوياً أو نفسياً، بل هو حالة من سوء الاختيار أو اللاعقلانية المرتبط بمسألة أو مسائل معينة، وقد نشأت في هذه الحالة من اختلاق البشر لقواعد وأحكام كانت سبباً وأداةً في جر الويلات على أنفسهم، وبالضرورة لابد أن يكون هؤلاء المجموعة من الناس ضالين؛ لأن الله الذي يتصف بالحكمة والمعرفة المطلقة، منزه عن استنان قواعد ضارة بعباده ومخلوقاته، لذا فإن السفه أقصى نقطة عقلية يبتعد عندها الإنسان عن الإيمان والتعقل الإيماني. ولا يوجد مثال أوضح على السفه من إقدام الإنسان على قتل أولاده، إما طاعة لمفكر منحرف أو حاكم متسلط أو لضلال ناتج عن أهواء وآراء فاسدة مثل الاعتقاد بأن وأد البنات ضرورة لتجنب الفقر واحتمال اضطرارهن للبغاء، وتسلط الآية القرآنية التالية أضواء كاشفة على أسباب هذا السفه:

---

(1) سورة الأنعام: الآية (140).

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ [1]

وهؤلاء المشركون السفهاء واقعون تحت تأثير معبوديهم بفعل الطاعة والإذعان وليس اعترافاً بألوهيتهم، ويشرع المعبودون من حكام طغاة أو كهنة مبتدعين شرائع من عندهم، تقضي أو تبرر لأتباعهم قتل أولادهم، وعندما يطيعهم هؤلاء فإنهم يتصرفون بسفاهة، ولم تندثر هذه الحالة مع العصور السالفة، التي كان يدعي الملوك فيها صفة الألوهية، إذا أنها تنطبق تماماً على ذلك الأب العراقي الذي يروى بأن قتل ابنه الفار من الخدمة العسكرية أثناء حرب العراق على إيران، وبدلاً من معاقبته على جريمته الجاهلية منحته الحكومة العراقية وساماً تقديرياً، وهذا مثال معاصر على تزيين أو تحريض أدعياء الألوهية من الطغاة أتباعهم على قتل أولادهم، فالحاكم يضع نفسه في مصاف الأرباب، عندما يأمر وينهي بالقتل خلافاً للمبدأ الرباني بحرمة النفس البشرية. ويأتي بعد ذلك في ترتيب الأهمية تحريم الرزق الضروري للحياة واستمراريتها، وهو ناتج أيضاً عن تصديق وإتباع عقائد باطلة ومنهجيات مضللة. ويبين القرآن الكريم بأن السفه ليس مرضاً عقلياً أو نفسياً وإنما هو منهج باطل، يتبناه الفرد بصورة واعية، لأسباب شتى مثل تعصبه لتراثه وعقائد آباءه وأجداده أو لدواعي المصلحة الذاتية، لذا فهو يسفه نفسه:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [2]

كما تسول هذه السفاهة لصاحبها اتهام معارضيه ومخالفيه بالسفاهة، وبالتالي حرمان نفسه من فرصة التعلم منهم، والمثال على ذلك موقف قوم عاد من النبي هود (عليه السلام):

---

(1) سورة الأنعام: الآية (137).

(2) سورة البقرة: الآية (130).

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [1]

وبالطبع فإنهم لا يدركون بأنهم هم السفهاء:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [2]

الانغلاق الذهني

ترد في القرآن الكريم تحذيرات عديدة من أشكال مختلفة من الانغلاق الفكري، التي تقيد إدراك الفرد للحقائق وتحليلها وفهمها وبناء الاستنتاجات الموضوعية عليها، وهي أشبه بالأسوار العالية التي يشيدها الإنسان بنفسه ويحيط بها عقله، فيمنع بذلك نفوذ المعرفة والأفكار الجديدة إليه، وخاصة تلك المغايرة لموروثه الفكري ومعتقداته، ويتمثل ذلك في حالة الغفلة أو الإغفال المتعمد للحقائق، وكما تصفها الآيتان التاليتان:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [3]

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [4]

وتشير الآيتان إلى امتلاك هؤلاء الغافلين للعقول والحواس السليمة، إلا أن قدراتهم العقلية الكامنة معطلة نتيجة اختيارهم الشخصي وبسبب الغشاوة التي يسدلونها على حواسهم ويعطلون بها عقولهم، فهم يسمعون ويشاهدون الحقائق إلا أنهم يرفضون عقلياً

---

(1) سورة الأعراف: الآية (66).

(2) سورة البقرة: الآيات (13).

(3) سورة الأعراف: الآية (179).

(4) سورة الكهف: الآية (28).

الاعتراف بوجودها وينفون أهميتها وجدواها، فبدلاً من توظيف حواسهم وعقولهم لإدراك الحقائق والعمل بموجبها والاستفادة من ذلك يحاصرونها بالموانع والمرشحات المعوقة للإدراك والفهم.

ويشخص القرآن الكريم العلة الأساسية وراء الانغلاق الذهني ليس في قصور عضوي في الحواس أو العقل؛ لأن جميع الأفراد الأسوياء يمتلكون وسائل الحس والقدرات العقلية:

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) [1]

فالكل يرى ويسمع ويدرك ويعقل إلا أن البعض انتقائي في إدراكه ومتحيز في أحكامه:

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) [2]

(أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) [3]

وقد لا يدرك هؤلاء البشر هذه الحقيقة إلا بعد فوات الأوان:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) [4]

ويعتبر القرآن الكريم تعطيل الحواس والعقل انحطاط إلى ما دون المستوى البشري:

---

(1) سورة الأحقاف: الآية (26).

(2) سورة الحج: الآية (46).

(3) سورة الرعد: الآية (19).

(4) سورة الملك: الآية (10).

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [1]

وذلك لأنهم بإغلاق عقولهم يتخلون عن الخاصية البشرية المميزة، أي التعلم، وبالتالي فإنهم يصبحون كالدواب. وتبين آية أخرى بأنهم ينحدرون إلى الدرك الأسفل من الخلق:

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [2]

وهؤلاء الغافلون ذوي العقول المغلقة أضل من الأنعام؛ لأنهم فاقدون لأدوات الاهتداء إلى السبيل، وهي العقل المنفتح والحواس غير المكبلة بالأهواء، كما لا يمتلكون غرائز الأنعام أو الحيوانات التي ترشدها تلقائياً.

وقد لا يخفي البعض منهم حقيقة ضعف إدراكه وفهمه لكل ما يختلف عن معتقداته وأفكاره، كما فعل ذلك قوم النبي شعيب (عليه السلام):

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [3]

وتعرض الآيات القرآنية الحالة المقابلة أو المضادة للانغلاق الفكري، والتي تتمثل في الإدراك السليم والعقل المنفتح:

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [4]

---

(1) سورة الأنفال: الآية (22).

(2) سورة الفرقان: الآية (44).

(3) سورة هود: الآية (91).

(4) سورة الزمر: الآيتان (17-18).

وأول خاصية لأولي الألباب "الاستماع" – أي: استعمال الحواس، بينما يوصف الجاهلون بالصم والبكم – أي: انعدام أو تعطل الحواس. ويستعمل أولوا الألباب حواسهم للاستماع إلى الحقائق، بينما يعجز الجاهلون عن ذلك باختيارهم أو نتيجة الغشاوة والحجب التي يسدلونها حولها، ولا يمكن لأولي الألباب الانتقال من مرحلة الاستماع إلى مرحلة إتباع أحسن القول بدون المرور بعمليات عقلانية، تنطوي على التحليل والتقييم ثم الاختيار الصائب، كما أنهم يبرهنون بذلك على امتلاكهم لأثمن صفتين أو ميزتين: التعقل والاهتداء.

الطبع والختم

عندما يوصد العقل البشري أبوابه أمام المعرفة الخارجة عن الأطر المقبولة لديه ينتج عن ذلك الطبع أو الختم، أي التحجر والتقوقع الفكري، إذ يعتبر الإنسان ما لديه من معتقدات وأفكار ومواقف حقائق نهائية وثابتة، لا يجوز إعادة النظر فيها وتقييمها أو تبديلها، وينتقد القرآن الكريم هذا الموقف المبدئي الرافض لكل جديد من المعارف والحقائق، حتى لو ثبتت صحتها القطعية:

(لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [1]

(فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ) [2]

---

(1) سورة الحج: الآية (53–54).

(2) سورة المائدة: الآية (13).

ولأن معتقدات وأهواء ومصالح القاسية قلوبهم أو المتحجرة عقولهم متعارضة مع الهدى الرباني يسارعون إلى تصديق كل ما يتنافى معه، ويستعملون الفكر المضاد لبلبلة عقول الآخرين والتأثير عليهم، كما أنهم لا يتورعون عن تحريف بعض النصوص الدينية، وكذلك طمس وتناسي البعض الآخر؛ لإزالة أو الحد من التناقض بينها وبين معتقداتهم وأهوائهم، وهم في ذلك مثل متعاطي المخدرات، الذي يبدأ بتجربة جرعة صغيرة، ثم ينتهي إلى الإدمان، إذ قد تكون بداية الطبع والختم بإغلاق كوة عقلية على الحقائق الخارجية، ومن ثم محاولة تشويه أو نفي هذه الحقائق عن الأذهان، ولأن الحقائق ماثلة للعيان، فإن هذه المحاولات مستمرة، ولابد أن يصبح إنكار الحقائق موقفاً مبدئياً وثابتاً، فينطبع على العقل، وهذا استعداد بشري كامن يجب الوقاية منه:

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ) [1]

(كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) [2]

(كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) [3]

(وَمِنْهُم مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) [4]

(أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) [5]

---

(1) سورة يونس: الآية (74).

(2) سورة الروم: الآية (59).

(3) سورة غافر: الآية (35).

(4) سورة محمد: الآية (16).

(5) سورة الأعراف: الآية (100).

ويتضح من هذه الآيات اتصاف هؤلاء المتطبعة عقولهم على الانغلاق والتحجر الفكري بالصفات التالية:

- الجهل أو قلة المعرفة؛ لذا لم يصنفوا مع (الذين أوتوا العلم).
- التكبر والتجبر والعدوان.
- تكذيب الهدى الرباني انطلاقاً من التعصب أو التحيز لموقف مبدئي.
- ضعف الإدراك والتعلم بدليل طلبهم التوضيح من أولي العلم.

وللطبع والختم أو التحجر الذهني مسببات ومظاهر ونتائج، فمن أسبابه: طغيان العقائد الموروثة والتعصب لها، ورفض الجديد من الفكر والحقائق، والميل للعدوانية والتسلط، وهذه كلها صفات مانعة ومثبطة للتعلم، وقد اكتشف علماء النفس والنفس الاجتماعي في القرن العشرين ارتباطها القوي بالشخصية السلطوية **authoritarian personality**، والتي تقترن عادة بالانغلاق الفكري **closed-mindedness** والتعصب العرقي والعنصرية ومقاومة التغيير، ونتائجها هي تشوش الإدراك وإقفال الأدمغة وقلة المعرفة.

نفهم من هذه الآيات بأن الطبع ليس صفة موروثة بل نتاج لنمط فكري غير سوي وفهم معوج، فضيق الفكر والتشبث بالرأي والمكابرة وعدم الاعتراف بالخطأ ورفض حجج الخصوم والمعارضين تؤدي إلى انغلاق أو شبه انغلاق فكري، فيقل استعداد الفرد للنظر في الآراء المخالفة لمعتقداته، أو حتى الاستماع إليها، وبالنتيجة يصبح هذا المنهج الفكري المتشدد الذي اختاره وأصر عليه علة ذهنية، تلازمه وتفرض نفسها على عقله وتفكيره فلا يستطيع التراجع منها أو الفكاك من قيودها، وكما تبين الآيات التالية:

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) [1]

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ) [2]

ولم يولد هؤلاء الأفراد بفكر متحجر، ولم يفرضه الله عليهم، بل هو منهج تطبعوا عليه، لذا تذهب محاولات إقناعهم سدى لرفضهم أساساً الاستماع للرأي المغاير أو إدراك حجج الآخرين (الختم على السمع والغشاوة على الأبصار). كما أنهم غير قادرين على فهم الهدى (الختم على القلب)، وهكذا يصدأ العقل ويتعطل الفكر:

(إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ)[3]

وبسبب ذلك فإن اختياراتهم تكون عادة غير صائبة:

(وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ) [4]

وما داموا هم مصرين على هذا المنهج المنحرف أو المرضي في الإدراك والفهم فسيقوى ويتوطد في عقولهم:

(فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) [5]

---

(1) سورة الجاثية: الآية (23).

(2) سورة البقرة: الآيتان (6-7).

(3) سورة المطففين: الآيتان (13-14).

(4) سورة البقرة: الآية (93).

(5) سورة البقرة: الآية (10).

وبالمقابل يتصف أصحاب العقول المنفتحة والمنهج السوي بسلامة العقل:

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [1]

وهي صفة النبي إبراهيم (عليه السلام) التي قادته إلى رفض عبادة الأصنام السائدة بين قومه، وزرعت في نفسه حب المعرفة، وأوصلته بالتالي إلى الإيمان:

﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [2]

حرية الإرادة

إن حرية الإرادة شرط أساسي وضروري للاختيار، فلو أقر الهدى الرباني إكراه الناس على الإيمان لألغى بذلك دور العقل وإمكانية الاختيار وحرية الإرادة، ولن تكون هنالك حاجة أو جدوى للتفكر والنظر في الظواهر والآيات، والاعتبار من الأمثال والقصص، ومن ثم التوصل بعد فهم معانيها ومدلولاتها إلى الإيمان، إذ يكفي آنذاك وضع أمر مباشر واحد: "عليك أن تؤمن وإلا..." ثم تليه بقية الوصايا والتعاليم، ولكن تكفي قراءة واحدة للقرآن الكريم للاقتناع بأن لا إيمان ولا تصديق حقيقي بدون حرية الإرادة والعقل، ولو فقد هذا الشرط الأساسي لغدا الإيمان مجرد تقليد أعمى وأجوف أو موقف قسري يتصنعه الفرد نفاقاً أو اتقاءً لسطوة حاكم أو مجتمع منغلق ومتعصب، وليس لإرادة الشخص واختياره أي دور في ذلك.

ونجد النص الواضح والصريح على مبدأ حرية الفكر في الآيات القرآنية التالية:

﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [3]

---

(1) سورة الشعراء: الآية (89).

(2) سورة الصافات: الآية (84).

(3) سورة المزمل: الآية (19).

(نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ) [1]

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ) [2]

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ) [3]

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ) [4]

ونستنتج من ذلك بأن العقل ليس مجرد أداة تلقي أو تلقين، وإنما وسيلة للإدراك والفهم والاختيار الحر.

العقل والأهواء والهدى

لكي نستطيع فهم العوامل المؤثرة في تحصيل المعرفة في نظام المعرفة الإسلامي لابد من التراجع خطوات لكي نتبين الصورة الكاملة، والتي تشمل إضافة إلى العقل عنصرين هامين هما "الأهواء والهدى"، فإذا كان العقل وسيلة الإنسان في الإدراك والتحليل والتمييز والاختيار فإن الأهواء هي النوازع أو الميول الذاتية النابعة من مواقف مبدئية، لا علاقة مباشرة لها بموضوع الاختيار والتي قد ترجح كفة بديل ما على بقية البدائل من دون اعتبار للموضوعية. وإذا كان الاعتدال مثل الاعتدال في الإنفاق وفي تناول الطعام هو الوسط العقلاني، فإن أي بديل آخر هو هوى بدرجة تتناسب طردياً مع درجة الميل عن الاعتدال، لذا فالهوى درجات، قد تزيد وتنقص، ولإتباع الأهواء نتائج غير محمودة، تتمثل في حالة

---

(1) سورة المدثر: الآيتان (36–37).

(2) سورة التكوير: الآيتان (27–28).

(3) سورة الغاشية: الآيتان (21–22).

(4) سورة يونس: الآية (108).

الإفراط في تناول الطعام أو الشراهة وكذلك تجويع الذات الإدماني المفضي إلى المرض وحتى الموت، والعامل الثالث هو الهدى الرباني، الذي سبق تعريفه.

يتأثر اختيار الفرد، في منظور نظام المعرفة الإسلامي، بالعناصر الثلاثة – أي: العقل، والهدى، والأهواء –، فالعقل وسيلة الإدراك والتحليل، ولكن ليس لديه مناعة ذاتية كافية ضد الأهواء، التي قد تحيد به عن الاختيار العقلاني والموضوعي، ومن الممكن أن يسقط العقل فريسة للأهواء، ويتحول إلى وسيلة طيعة بيدها، تسيره كما تشاء، وتزين له الاختيارات والبدائل الأقل إيجابية أو حتى السلبية، وتمنيه بما سيجني منها من منافع آنية وملذات حسية قصيرة الأمد، وتصرف نظره عن المخاطر الجمة الكامنة فيها، والعواقب والمضار الجسيمة التي تؤدي إليها، فالأهواء والهدى قوتان عظيمتان تتجاذبان العقل البشري، وتتنافسان في السيطرة عليه، ومتى ما تم لإحداهما الغلبة فإن النتيجة تكون أحد نمطين رئيسيين من الاختيارات، يصنفان تحت الاهتداء أو الضلال في نظام المعرفة الإسلامي، الذي يرى في الاهتداء قمة المعرفة واكتمال المصلحة، وفي الضلال الجهل والمضرة. ولكي يتوضح ديالكتيك هذه القوى لابد من استعراض وشرح الحالات المحتملة الناتجة عن تصارعها.

سيطرة الأهواء

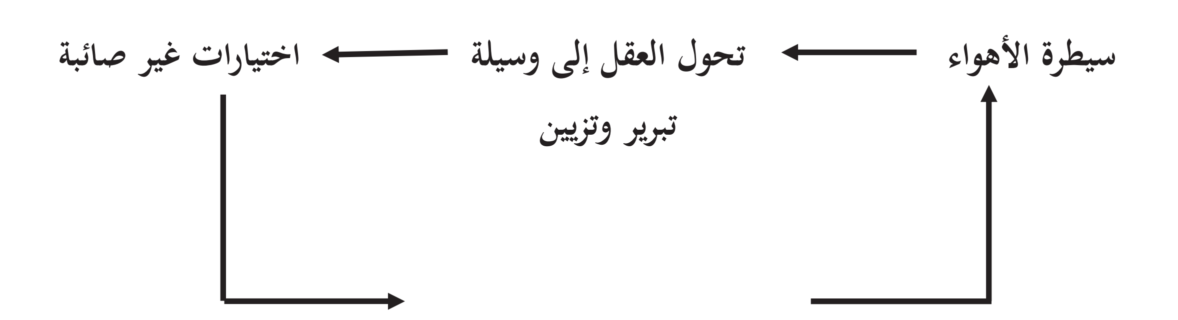
إن الأهواء قوة دافعة مؤثرة في الفكر والسلوك، وتكمن قوتها وتأثيرها في اغراءاتها الكبيرة، إذ تبدو أحياناً أشبه بحسوة ماء لشخص مشرف على الهلاك من العطش أو كسرة خبز لمن يتضور جوعاً، ويكفي التلويح بها أمام الفرد المحروم لكي ينجذب إليها بكل حواسه، ويقبل عليها بكافة قواه العقلية والبدنية، وينتهي التشبيه عند هذه النقطة لكي نستدرك بالقول أن القيمة الحدية لهذه المغريات أو المشبعات ليست مطلقة ولا ثابتة عند مستوى أو رقم معين، بل هي متغيرة، صعوداً ونزولاً حسب التقييم النسبي للفرد، فقد يكون الحصول على دينار واحد هدفاً محركاً لشخص ما، بينما لن يتزحزح آخر من مكانه لأقل من ألف، ولتقريب الموضوع إلى الأذهان بصورة أفضل فإن قاتلاً مأجوراً قد يكون مستعداً

لارتكاب جريمة قتل مقابل دنانير معدودات، بينما لن يرضى آخر إلا بسعر ضخم. وفي كلتا الحاليتين يكون الفرد مسيراً بالأهواء؛ لأن تفكيره واهتمامه منصبان على جانب واحد من النتائج المتوقعة لعمله أو اختياره، أي الفوائد المادية المتوقعة، فيما أسقط من حساباته العواقب الوخيمة المترتبة عليها، مثل احتمال قتله على يد الشخص المستهدف أو قريب له أو شرطي، أو القبض عليه ومحاكمته وإدانته والحكم عليه بالإعدام أو السجن لمدة طويلة، ولو كان تحليله السابق لقراره شاملاً لكل هذه الاحتمالات ومتوخياً الموضوعية والواقعية، لما أقدم على فعلته، ولكن اقتصار التحليل على جانب محدود من الصورة الكلية يؤدي به إلى استحسان عمله ولا يجوز إطلاق صفة "الغباء" أو "قلة العقل" أو الاضطراب النفسي عليه لمجرد أنه اختار بكامل عقله الانسياق وراء أهواءه ونزعته الإجرامية، وهنالك العديد من المجرمين الذين اكتنزوا الثروات واكتسبوا النفوذ، واعتلوا سدات الحكم في بعض الدول، ولا يصدر الحكم على المجرم بالغباء وقصر النظر عادة إلا بعد القبض عليه، والسمة المشتركة بين كافة المجرمين استهتارهم باحتمال الانفضاح وما يترتب على ذلك من جزاء وفقدان للمكانة والسمعة وتضييع لفرص العمل المشروع كما تقترف غالبيتهم العظمى الجريمة إما مدفوعين بنزوات آنية أو بإغراءات الكسب في أقصر وقت وأقل جهد، بدلاً من الانتظار فترات أطول لبلوغ نفس الهدف بطرق مشروعة، لذا ينطوي اختيارهم على مخاطرة كبيرة، وغير مقبولة بالنسبة للأفراد الملتزمين بالقوانين أو الشرع أو القيم ومبادئ الأخلاق الناهية عن الظلم والاعتداء، وفي كل الحالات يصدر القرار بالإقدام على الفعل الممنوع أو الامتناع عنه من العقل، الذي لابد أن يسوغه ويبرره لصاحبه.

تتفاوت درجة سيطرة الأهواء على الإنسان من فرد لآخر، فالطفل – مثلاً – ولعدم قدرته على إدراك التعاليم الربانية أو القيم والمبادئ والقوانين يكون خاضعاً للأهواء، لذا يتعهد أبواه والمجتمع بتربيته، أي تعليمه وإرشاده وتعويده على تقبل كل أو بعض هذه القواعد العامة للسلوك والتعامل مع الآخرين، والتي بدونها تتفكك الجماعات وتندثر الحضارات، كما أن المجرم المحترف منقاد لأهوائه، وعندما يقدم المنتحر على إنهاء

حياته بيده يكون خاضعاً لسيطرة أهواءه بصورة تامة، وفي حالة الغضب أو الحسد أو القنوط تتغلب الأهواء على النفس، مادامت تحت تأثير هذه الحالة المزاجية. ولا شك بأن المعتوه فاقد للعقل السوي، وبالتالي غير قادر على التمييز أصلاً واستقبال الهدى الرباني، ويقع السواد الأعظم من الناس تحت تأثير الأهواء بصورة يومية أو متكررة مهما كانت مستوياتهم العقلية والفكرية، فعندما يشتري واحد من ملايين البشر المدمنين على التدخين علبة سجائر، على الرغم من معرفته بأضرارها الصحية والمادية فإنه يفعل ذلك تحت سيطرة الأهواء، وتنطبق نفس الملاحظة على المخالفين لتعاليم المرور.

والكافر هو نموذج الفرد الرازح تحت سيطرة أهواءه، لذا فإنه أشد الناس مقاومة للهدى الرباني لمعرفته بالتعارض الصارخ بين الهدى والأهواء، فعندما ترجح كفة الأهواء في داخل العقل ستوصد الأبواب أمام نفوذ الهدى إليه، وعندما يكون الكافر معانداً ومصراً على الكفر تنقطع صلته بالهدى تماماً، ويتحول إلى عدو له، وتتراوح ضراوة عدواته بين الاستهزاء والحرب المفتوحة، ويقدم القرآن الكريم فرعون نموذجاً للكافر، وتمثل مواقفه الفكرية الكافر بأتم صورة، إذ يتناقض الهدى الرباني مع ادعاءه المصلحي بألوهيته، ويمكن للعقل البشري السوي، وحتى عقل فرعون نفسه، إدراك زيف هذا الادعاء وافتقاره للمصداقية والسند المنطقي، إذ لم يمتلك هذا الفرعون، مهما أوتي من قوى ذاتية ومكتسبة نتيجة تسلطه على مصر وأهلها قدرات الإله، وهذا ما لم يعترف به فرعون واتباعه لتعارضه مع مصالحهم كما يرونها، وهكذا تحول العقل الفرعوني إلى وسيلة تبرير وتزيين، تبحث عن الأدلة والحجج لإثبات ألوهية فرعون ودحض كل ما يعارض ذلك، وتكتمل الدائرة المغلقة لسيطرة الأهواء مع وجود المعاندة والمكابرة، كما يبين الشكل التالي:



المعاندة والمكابرة

لذا لا غرابة أن يصف فرعون نفسه، وهو يكفر بالرسالة الربانية، بالرشد ويجزم بأن طريقته هي (سيبل الرشاد):

(قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) [1]

هل خدع فرعون نفسه بهذا الادعاء؟ يعتمد الجواب على وجهة النظر، فمن المؤكد حكم المؤمن على هذا الموقف بخداع النفس؛ لأنه بتقديره مناقض للرشاد، ولكن لفرعون وأشباهه منظور وتقييم مختلف، وقد بين لأتباعه اقتناعه التام بذلك: (ما أريكم إلا ما أرى)، وهو موقف الإنسان الخاضع لأهوائه، إذ يصبح لتبرير هذا الموقف المسير بالأهواء منطق أعلى يفوق ويتقدم على ما سواه، وهو ما يعرف في علم النفس الحديث "بالتوافق الفكري" – والقسري أحياناً – للآراء والمعتقدات التي يحملها الفرد، أو cognitive consonance، وهكذا يصبح الاعتقاد الفرعوني بألوهية الذات فكراً تبريرياً، ورفضاً مبدئياً لكل ما يتعارض معه، لذا أصر فرعون على ادعاء الألوهية وكون طريقته هي المثلى، وهو في ذلك أشبه بمدمن التدخين الذي يرفض عقله تصديق الأدلة العلمية المتراكمة حول ارتباط التدخين بالإصابة بأمراض خطيرة مثل السرطان، إذا لو اعتقد بصحتها لما استطاع الاستمرار في غيه وعادته الضارة، وقد بينت الآية القرآنية التالية الحكم الرباني على فرعون وأتباعه:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ) [2]

---

(1) سورة غافر: الآية (29).

(2) سورة هود: الآيتان (96–97).

وبينما وصف فرعون طريقته بـ "سبيل الرشاد"، نجد بأنها في منظور الهدى الرباني موصومة بالعس من ذلك تماماً، أي "انعدام الرشد" وإصرار فرعون وأشياعه على الاستمرار في طريقتهم غير الرشيدة ممكن نتيجة الانغلاق الذهني والتزيين الذاتي لعقائدهم التي جعلوها أساساً لنظمهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ونبذها معناه التخلي عن هذه النظم وما تدره عليهم من منافع ومصالح، لذا عادة ما تكون معارضة القادة والطبقات العليا في المجتمع للتغيير المرتبط بتطبيق الوحي الرباني بأعلى درجة؛ لارتباط مصالحهم باستمرار النظام الراهن، فيما تكون الطبقات الأخرى، وخاصة المحرومة منها، منفتحة نسبياً على العقائد الجديدة، وقد استشعر المفكرون الماركسيون هذه الحقيقة، التي سبقهم الإسلام إلى بيانها بقرون عديدة، عندما أشاروا إلى صيرورة المعتقدات أو الفكر وسيلة أو أداة لتبرير وتوطيد مصالح الطبقات الحاكمة أو المهيمنة على المجتمع، فالفكر السائد في المجتمع البرجوازي ما هو إلا تزيين لسيطرة الطبقة البورجوازية على السلطة ووسائل الإنتاج.

ومن المحتمل أن تُحرف العقيدة الدينية الصحيحة لتصبح فكراً تبريرياً لأهواء ومصالح طبقة حاكمة، فقد استعمل الحكام الأمويون العقيدة الجبرية، أي الاعتقاد بأن الإنسان مسير تماماً وليس مخيراً لإضفاء المشروعية على حكمهم، فأشاعوا الاعتقاد بأن الله قد اصطفاهم لحكم الناس جبراً، لذا فلا مناص للرعية من طاعتهم. وكما هو معروف فإن هذه العقيدة دخيلة على الإسلام؛ لتناقضها الصارخ مع حرية الإرادة والمشيئة، والتي هي أساس ضروري للعلاقة بين الخالق والبشر، وركن من أركان نظام المعرفة الإسلامي.

هل يستطيع العقل وحده السيطرة على الأهواء؟

مهما بلغ العقل البشري من الكمال أو حتى العبقرية يبقى عرضه لتأثير الأهواء، التي تأخذ أشكالا متنوعة، وتؤثر بطرق مختلفة، فقد تكون هذه الأهواء على شكل عقائد وقيم متوارثة من الآباء والأجداد، أو قوانين وتعليمات يتوجب على الإنسان التقيد بها، أو قيم اجتماعية وسلوكيات سائدة ضمن المجتمع والعائلة ومكان العمل، فلو طلب رئيس من

مرؤوسه سرقة جهد آخرين أو الكذب على عميل، أو بيع بضاعة فاسدة، فهل يطيعه في إتباع الهوى أم يعترض ولا يذعن حتى ولو خاطر بفقدان وظيفته، وما يستتبع ذلك من تضحيات؟ فقد يكون إتباع الهوى ناتج عن إرادة ذاتية مسبوقة باقتناع عقلي بجدواه أو عن إذعان لضغوط مباشرة أو غير مباشرة، لا قبل له بمقاومتها، سوى أن الفرد المجبر يدرك مجانفة هذا الفعل والفكر المسوغ له للصواب، وبما أن دور العقل قد يقتصر على تبرير وتزيين الأهواء ومكاسبها فإنه غير قادر في كل الحالات على السيطرة على الأهواء، التي غالباً ما تجد لنفسها منفذاً إلى داخل العقل، فتستقر داخله وتسيطر عليه، أو على الأقل تصبح إحدى المؤثرات الفاعلة، ويكون العقل أعزلاً أمامها وغير قادر على نبذها بإمكاناته الذاتية، وتتعزز قوة الأهواء عادة بوجود أعداد غفيرة من البشر، التي لا ترى ضيراً في إتباع أهوائها، بل أنها تعتبر ذلك وضعاً طبيعياً، لذا لا ترتاح لأولئك الذين يروضون أهوائهم، فالجماعتان على طرفي نقيض، وقد يبلغ التوتر في العلاقة بينهما إلى العداء المكشوف، فتبادر الفئة الخاضعة للأهواء، والتي عادة ما تكون أغلبية، إلى اضطهاد الفئة الرافضة لها، بما في ذلك الطرد من الجماعة، والذي كان ولا يزال من أقسى العقوبات، وهذا ما بينته الآيتان الكريمتان التاليتان:

(أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) [1]

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ) [2]

مراتب المعرفة

تؤكد الملاحظة اليومية عدم تساوي البشر في معارفهم، ويعزي هذا التباين في المعرفة عادة إلى القدرات العقلية والتعلم، ومن المؤكد بأن معرفة الفرد مرتبطة ارتباطاً مباشراً

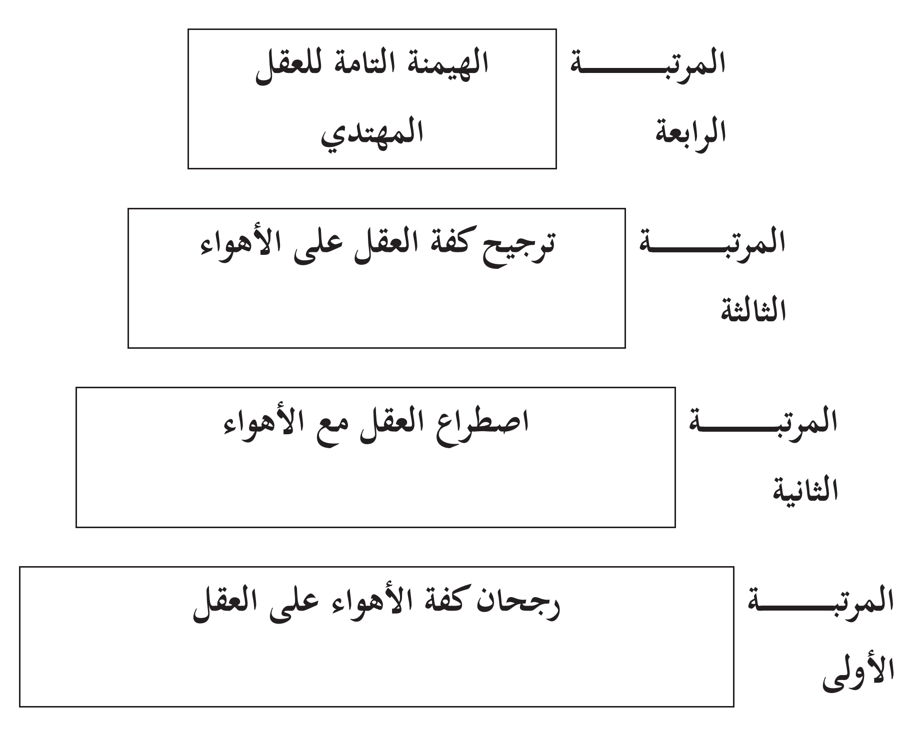
(1) سورة الأعراف: الآية (82).

(2) سورة هود: الآية (91).

باستعداده للتعلم، وبافتراض ثبات القدرات العقلية فإن تميز فرد على غيره في المعرفة يعتمد على مدى إقباله على التعلم، والنهل من المعارف. وبما أن العقل والحواس هما نوافذ الفرد على العالم، فكلما اتسعت مساحات هذه النوافذ كلما تنامى التفاعل مع البيئة، وازدادت كمية المعارف والمعلومات المستقبلة. وبالمقابل، فيمكن تضييق هذه النوافذ حتى تغدوا كوات صغيرة، لا يكاد يرى ضوء النهار من خلالها، وما يوازي ذلك من المعرفة ضئيل جداً، كما يؤدي وضع مرشحات أو زجاج قاتم على هذه النوافذ إلى السماح بنفوذ معرفة قليلة وبصورة انتقائية، وينتج لدينا من هذا التشبيه وما يقابله في الواقع حالتان: عقل مفتوح open mind وعقل مغلق closed mind. وكما بينا سابقاً، فالفرق بينهما نسبي، فلا العقل المفتوح مشرع على مصراعيه؛ لأن العقل – ومهما أردنا له الانفتاح – يتأثر بالموروث الثقافي والقيمي وغيره من المؤثرات الفكرية، كما لا يوجد عقل منغلق تماماً على الخارج، إلا إذا كانت الحواس معطلة تماماً، ويكون انفتاح العقل محدوداً – أي: أقرب إلى حالة الانغلاق الاختياري، بفعل الأهواء أو التحيزات المقيدة للإدراك والفكر، ويميل صاحب العقل المغلق إلى انتقاء المعرفة انتقاءً، فيقبل منها ما يتفق مع معتقداته وأفكاره، ويرفض ماعدا ذلك، وتتأثر أحكامه أيضاً بهذه الأهواء أو التحيزات؛ والتعصب العرقي أو العنصرية مثال على هذه الأهواء، ويصنف العنصريون البيض أفراد الأعراق الأخرى من البشر في مراتب أدنى منهم، ويستدلون على ذلك من الإنجازات التي حققها أفراد جنسهم في الزمن المعاصر، فتتلون نظرتهم وأفكارهم بهذه العقيدة، فإذا تفوق إنسان أو مجموعة من عنصر آخر عمدوا إلى التشكيك بصحة ذلك، أو التقليل من أهميته أو اعتباره استثناءً على القاعدة؛ لعدم اتفاق هذه الحقيقة مع عقيدتهم العنصرية، وكلما تعاظمت الأهواء أو الأحكام المسبقة الجاهزة في عقل الفرد كلما قلت كفاءة حواسه وتدنت موضوعية أفكاره وأحكامه، ونتيجة ذلك هي محدودية المعرفة الحقة لديه. وبالعكس من ذلك، يتيح الانفتاح الحواسي والذهني للفرد الإقبال على المعرفة واستيعابها والاستفادة منها دون تحفظات.

لا تكتمل صورة نظام المعرفة الإسلامي من دون الهدى الرباني، وذلك لان العقل غير كاف وحده لدرء تأثيرات الأهواء، إذ قد يتحول إلى مطية للأهواء، تسيره كما تشاء، لذا فإن التنافس أو التصارع بين الأهواء والعقل على فكر وقرارات وسلوك الفرد غير متكافئ، ولا يوجد ضمان لترجيح كفة التعقل، إلا بإضافة الهدى الرباني، وليصبح المرجع النهائي للعقل، وبما يشبه دستور من المواصفات والقواعد الثابتة، يعرض عليه العقل أفكاره لتمحيصها من حيث المنهج والمحتوى، فإذا اتفقت معه أخذ بها، وإذا اختلفت نبذها.

ينتج عن تفاعل هذه العناصر أو القوى الثلاثة، أي: الهدى والعقل والأهواء، أربعة مستويات من المعرفة، تترتب في شكل هرم متدرج، وكما هو مبين في الشكل التالي:



تتصف المرتبة الأولى من المعرفة عند قاعدة الهرم بترجيح كفة الأهواء على العقل، فالعقل هنا ضعيف تجاه الأهواء، التي تأخذ بتلابيبه، وتؤثر فيه، وتقوده غالباً بعيداً عن جادة الصواب، وقد تؤدي به إلى تدمير نفسه وإهلاك غيره، فلا يقدم الإنسان على الانتحار مثلاً إلا إذا كان عقله مغيباً أو واقع تحت السيطرة التامة للأهواء، التي تزين له إنهاء حياته، إما حفاظاً على كرامته أو ماء وجهه –كما كان يفعل محاربو الساموراي اليابانيون إثر هزيمتهم

– أو هروباً من أزمة عاصفة مثل الفشل الدراسي أو العاطفي، أو لسبب أتفه من ذلك مثل استجداء اهتمام وعطف وشفقة الآخرين. كما أن اقتراف الجرائم طاعة للهوى، الذي يزين لمرتكبها المكاسب السهلة – من رضا أو شعور بالقوة والسيطرة أو مال وفير – ويحجب عن عقله الإدراك الصحيح والواقعي للمخاطر الكامنة في فعل الجريمة وما ستفضي إليه من نتائج وبيلة أو تقلل من أهميتها وفداحتها.

العقل وسيلة تحليل واستنتاج، والأهواء هي غايات مبنية على نظرة قاصرة، لا تأخذ في الاعتبار كافة حقائق الموقف، وإيجابياتها وسلبياتها، وعادة ما تُرغب للعقل مزايا إشباع الحاجات الآنية وعلى حساب المنافع طويلة الأجل. وكما أسلفنا، يُعرّف الكافر، من منظور معرفي إسلامي، بأنه شخص منقاد إلى أهواءه، ولا يستدل من ذلك على ضعف أو قصور عقله، فقد يكون ذكاءه لامعاً، كما تشهد بذلك أفكاره ومؤلفاته، ويعترف به أقرانه، ولكن علمه قليل نسبياً بما يمكن أن يكون عليه لو تجرد من أهواءه، فالمسألة نسبية.

وتردد أروقة الجامعات في كل أنحاء العالم صدى حكايات عن أفول نجم علماء بسبب انجرافهم وراء أهوائهم التي سولت لهم تزييف بعض بيانات ونتائج بحوثهم، أو حتى سرقة جهود غيرهم سعياً وراء مكانة علمية رفيعة، وشهرة بين أقرانهم، أو طمعاً بتكريم علمي مثل جائزة نوبل أو غيرها، وبالإضافة إلى القيود التي تضعها الأهواء على حصيلتهم من المعرفة واحتمال فقدان مكانتهم العلمية فإنها قد تقودهم إلى الزلل في حياتهم الشخصية، فيقدمون على استغلال سلطاتهم التعليمية والتربوية في استدراج طلبتهم إلى علاقات شخصية محظورة أخلاقياً. ونخلص من هذا بأن مقابل كل مساحة من عقل الإنسان خاضعة للأهواء خسارة موازية للانضباط الذاتي.

وتوصف حالة السواد الأعظم من الناس بأنها وسطية، حيث تتصارع الأهواء مع العقل داخل نفوسهم، ولا تكون لإحدى القوتين الغلبة الواضحة أو الدائمة، فأحياناً ينساق الفرد منهم وراء أهواءه، تسيره كما تشاء، وفي أحيان أخرى يمسك عقله بزمام أموره وينبذ الأهواء، وتنتج هذه الحالة عن قوة الأهواء وتأثيراتها على النفس البشرية، فالإنسان عرضة

للخوف والقلق الناجمين عن الحاجة للبقاء وأجواء التنافس مع الآخرين على لقمة العيش، ويؤدي هذا القلق إلى اتجاهات فكرية وسلوكيات لا تتفق دائماً مع الإدراك بعيد النظر لدواعي المصلحة الذاتية، فالإنسان الخائف من المجاعة أكثر استعداداً للانصياع لأهوائه التي قد تأمره بالإفراط في الأكل حتى التخمة، أو أن يحرز الطعام لنفسه حتى ولو بحرمان الآخرين منه وتعريضهم للهلاك جوعاً، وقد لا يعير آذناً صاغية لصوت العقل، الذي يؤمن بأن بقاء الفرد على المدى الطويل مرتهن ببقاء الجماعة، ولو فكر وتصرف الجميع مثله لضعفت الجماعة، ولربما بادت نتيجة تسيد الأهواء على العقل.

في المرتبة الثالثة من مستويات أو حالات المعرفة ترجح كفة العقل على الأهواء، ويكون الفرد آنذاك متمكناً من التحكم بأهوائه وتحكيم عقله في معظم الأوقات وغالب المواقف، وهو – مثل غيره – تأتيه الأهواء من كل صوب وفي كل حين، لكنه قادر على مقاومتها، من خلال تدريب أو تعويد ذاتي، إما ناتج عن حكمة وخبرة، أو النظر بإمعان في تجارب الآخرين واستخلاص العبر منها. وقد افترض الفلاسفة والمفكرون والعلماء على مر العصور بأنهم متميزون عن بقية الناس في قدرتهم على التمييز بين الأهواء والتعقل، لذا فقد نَّصب أفلاطون فيلسوفاً على رأس جمهوريته المثالية، ولا يستبعد إمكانية إدراك هذا الفيلسوف أو المفكر أو العالم لجانب من الحقائق التي يتضمنها الهدى الرباني؛ إما بتوارثها وتناقلها من رسالات سابقة، أو نتيجة اتفاق الحكمة الفردية مع الهدى الرباني، إلا أن هذا الاكتساب أو الاتفاق يبقى – في أفضل حالاته– جزئياً، ولا يمنح صاحبه درجة عالية من المناعة ضد الأهواء ومقدرة كافية على مقاومتها، وعلى أية حال فإن بلوغ هذه المرتبة بجهود ذاتية إنجاز عظيم بحد ذاته، ولكن لو كان الفرد قادراً على السيطرة على أهواءه بقدرات ذاتية لما كانت هنالك حاجة للهدى الرباني، إذ لا يمتلك العقل البشري تكوينياً مناعة ذاتية كافية ضد الأهواء، ولا يستطيع اكتسابها من خلال التمرين أو التجربة والتعلم، ولأن الله هو خالقنا فهو الأعلم بعجزنا عن مقاومة الأهواء اعتماداً على قدراتنا

العقلية الذاتية، لذا فإن حاجة الإنسان إلى الهدى عامة وثابتة، أي أنها تنطبق على الجميع – بما في ذلك أحكم الفلاسفة وأذكى المفكرين والعلماء.

ولا يبلغ العقل الحد الأعلى المستطاع من السيطرة على الأهواء إلا في المرتبة الرابعة من هذا المنظور، والتي أسميناها هيمنة العقل المهتدي، والتي تتعزز فيها قوة ومناعة العقل بالهدى، فيصبح الهدى أشبه بالملاح الذي يلجأ إليه الربان – العقل كلما أرد اتخاذ قرار خاص بإدارة وتوجيه السفينة، فلا انفصام للشراكة بين الربان والملاح؛ لأن الربان يعلم يقيناً بأن استبداده بالرأي دون الاهتداء بالملاح وعلمه قد يؤدي به إلى توجيه السفينة داخل عاصفة أو في مضائق مائية وعرة وبالتالي غرقها، أما إذا غاب الربان أو العقل فلن يجد الملاح من يستمع إليه ويسترشد بعلمه، وكلما ازداد إيمان الفرد اعتقاداً وتطبيقاً كلما اقترب من هذه المرتبة العالية من المعرفة، ويستوي في ذلك الإنسان البسيط مع العالم الفذ، ولأن هيمنة العقل المهتدي مشروطة بانفتاح الذهن وتقبل المعرفة لذا تكون قدرة الفرد على التعلم في أوجها.

الفصل الثالث
البحث والمفاهيم والمعلومات

يحصل الفرد على العلم أو المعرفة عن طريق التعلم، الذي يبدأ منذ لحظة الولادة ويستمر مادام عقله قادراً على ذلك ومنفتحاً على المعرفة. والمعرفة في منظور نظام المعرفة الإسلامي غير منتهية عند نقطة معينة، بل هي متطورة ومتنامية، لذا ينبغي على الفرد المداومة على البحث عن المعرفة والمساهمة في تنميتها؛ لما للمعرفة من قيمة عليا بالنسبة له ولمجتمعه. وكما هو معروف، تتطلب عملية البحث عن المعرفة مستلزمات محددة مثل المفاهيم ووسائل جمع البيانات وأساليب التحليل والاستنتاج، وهذه هي المواضيع التي سيتركز عليها الاهتمام في هذا الفصل.

عملية البحث

أكدت العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على أهمية المعرفة والعلم، واعتبرت البحث عنها من الواجبات الدينية، وانتقدت الانغلاق على المعرفة، والاعتقاد بوجود نهاية أو سقف للمعرفة يجب أن تتوقف عندها عمليات البحث عن المعرفة والاكتفاء بما لدى فرد أو مجموعة ما من معارف:

(فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) [1]

ومن الواضح بأن الغرض من هذه التعاليم حث المسلمين على البحث عن المعرفة، ولم يكتف النظام المعرفي الإسلامي، كما بينته النصوص الدينية، بالتشجيع على طلب المعرفة، بل شرح المنهجية العلمية المنضبطة، وأوضح القواعد والأسس السليمة لعملية

---

(1) سورة غافر: الآية (83).

البحث، ونبه إلى الأخطاء والانحرافات والتحيزات التي قد تحيد بهذه العملية عن مسارها الصحيح وتمنعها من بلوغ أهدافها.

يتفق المختصون بمنهجيات البحث بأن الهدف الأسمى لعملية البحث "الإسهام في تنمية المعرفة"، ولكن يجب أن يكون هنالك هدف محدد لكل بحث، وإلا فسيكون من الصعب توجيهه الوجهة الصحيحة والتوصل إلى نتائج مفيدة، والمثال على البحث الهادف هو استكشاف النبي إبراهيم (عليه السلام) للخالق، والذي بدأ بتساؤل مع نفسه حول ماهية الخالق، وقاده هذا السؤال والهدف من وراءه إلى مجموعة من الخطوات، اشتملت على طرح واستبعاد فرضية تتعلق بألوهية النجوم والشمس، ومن ثم رفض عبادة الأصنام وتحطيمها وإثبات عجزها.

ولأن حدود المعرفة البشرية غير معروفة ولا يمكن التنبؤ بها، فإن أهداف البحث بصورة عامة لا متناهية، أو شبه لا متناهية، وبالتالي يمكن للباحث أن يختار أي هدف يراه مناسباً لبحثه. وبالإضافة إلى وضع هدف محدد وواضح، لابد من تهيئة المستلزمات الأخرى لإنجاز البحث، وبالأخص استعمال المسميات الدقيقة للظواهر المراد بحثها واختيار وسائل جمع البيانات المناسبة وتحري الأمانة العلمية في كل ذلك.

المسميات Labels or Concepts

يستعمل الفرد في اتصالاته العديد من الكلمات والمصطلحات المستمدة من لغته، وللمختصين في حقول المعرفة المختلفة مصطلحات خاصة يستخدمونها في بحوثهم ومؤلفاتهم، والمصطلحات هي مسميات يتفق المختصون على استعمالها للدلالة على الظواهر phenomenon التي يهتمون بدراستها. ومن القواعد المتفق عليها بين الباحثين ضرورة تقنين وضع واستخدام المسميات، فلا يجوز لكل باحث المبادرة إلى وضع واختيار مسمياته بمنأى عن الباحثين الآخرين، أو ما تحتويه أدبيات الحقل من مسميات، بل الواجب عليه أن يستخدم ما هو متوفر من مسميات، ولا يطرح مسمى جديداً إلا عند

الضرورة، كما ينبغي وضع تعاريف محددة لهذه المسميات، وحصول إجماع على هذه التعاريف قدر الإمكان، فإذا وجد مثل هذا الإجماع صار ممكناً للباحثين وفي أي مكان وزمان فهم معاني المصطلحات أو المسميات، مثل الكتلة أو الوزن النوعي أو الكآبة أو الدور الاجتماعي، التي استعملها باحث في تقرير بحثه، وبالتالي تشكل هذه المسميات مفردات اللغة العلمية أو التخصصية لحقل المعرفة.

يمكن تصنيف المسميات كما يلي:

أولاً: مسميات أو مصطلحات تطلق على ظواهر محسوسة مثل الوزن والمساحة والزواج، وتتميز هذه الظواهر بقابليتها للتعريف والملاحظة والقياس، لذا فإن الاتفاق حولها ممكن.

وثانياً: مسميات لظواهر محسوسة ولكنها شخصية **subjective**، مثل الجمال والسمو، ولا يوجد اتفاق حول معانيها؛ لأنها مرتبطة بإدراك الفرد ومعاييره الشخصية.

وأخيراً، توجد مسميات لظواهر غير محسوسة تماماً، ولأنها غير محسوسة بواسطة وسائل الحس، فلا يوجد اتفاق حول وجودها، وبالتالي لا يمكن التوصل إلى تعاريف مشتركة لها تبين كيفية التعرف عليها في الطبيعة، وينطبق هذا على كافة الظواهر الميتافيزيقية مثل: الروح.

ويخبر القرآن الكريم بأن عملية تعلم آدم بدأت بالأسماء:

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) [1]

---

(1) سورة البقرة: الآية (31).

وكانت تلك بداية عملية التعلم البشري، ويستدل من ذلك على أهمية المسميات أو الأسماء والمصطلحات ليس لأغراض التخاطب والتفاهم فقط، وإنما أيضاً لتدوين وبناء وتراكم ونمو المعرفة.

يدعو نظام المعرفة القرآني إلى توخي الدقة في إطلاق واستعمال الأسماء أو المسميات، ويؤكد على ضرورة استناد المسميات إلى واقع مادي أو حجج وأدلة، ويعتبر فقدان أو ضعف هذه الأسس والوقائع خطئاً جسيماً، ينطوي على مغالطة ومجانفة للصواب والحق، كما تبين الآية التالية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى، وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [1]

لذا لا يعتبر الظن أو احتمال صحة الافتراض كافياً لاستعمال المسمى، وتحذر آيات أخرى من الاستعمال غير المنضبط للمسميات أو المصطلحات بدون اعتبار للحقائق المادية أو الأدلة الموثقة:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [2]

﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [3]

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [4]

---

(1) سورة النجم: الآيتان (27–28).

(2) سورة النجم: الآية (23).

(3) سورة الأعراف: الآية (71).

(4) سورة يوسف: الآية (40).

وتشير هذه الآيات إلى الخطأ الذي وقع فيه أتباع الديانات غير السماوية باختلاقهم الآلهة، وإطلاق أسماء عليها – مثل: اللات والعزى وهبل –، واعتبروا هم والأجيال اللاحقة من بعدهم تلك الأسماء آلهة حقيقية مستحقة للعبادة، فهذه الآلهة الملفقة أباطيل تحولت بفعل التسمية، أي إطلاق مسمى الآلهة عليها، إلى حقائق لدى الذين اختلقوها، ويستدل من هذه التحذيرات الواضحة على وجوب أن تكون المسميات إثباتاً لواقع أو ظاهره حقيقية، وليس مجرد كلمات ينقصها الأساس المادي واجتناب الظن وتحري الموضوعية التامة في استعمال ونشر المسميات:

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ)[1]

مجتمع وعينة البحث

تجرى البحوث على مجتمع أو عينة من الظواهر، ويقصد بالمجتمع كافة مفردات الظاهرة قيد البحث أما العينة فهي عدد محدود من مفردات هذا المجتمع أو الكل. فمثلاً إذا أراد باحث دراسة التحصيل الدراسي لطلاب مرحلة دراسية، فإنه إما يعمد إلى تحري تحصيل كافة طلاب المرحلة، أو الاكتفاء بعينة من هؤلاء الطلاب، وتختار العينات وفقاً لأسس وقواعد منهجية، وغالباً ما تجري البحوث على عينات لصعوبة أو استحالة شمول المجتمع بأكمله، ويستعاض في هذه الحالة عن المجتمع الكلي بعينة ممثلة له، أي بافتراض تمثيلها للمجتمع الكلي أو تماثلها معه في أبرز وأهم الخصائص، مما يبرر تعميم النتائج المستقاة عن العينة على المجتمع بأكمله، أي أن ما يصح بشأن العينة يسري على المجتمع أيضاً. وتواجه الباحثون صعوبات في التحقق من تمثيل العينة للمجتمع، لذا تكون نتائج البحوث عادة بدرجة صحة دون الدرجة التامة.

(1) سورة الرعد: الآية (33).

يبين القرآن الكريم المنهج الرباني بخصوص هذه المسألة، والذي يتميز عن المنهج العلمي (البشري) في اعتماده الحصر الشامل والتام وليس العينة، لذا فإن صحة الأحكام الربانية تامة بينما صحة الأحكام البشرية احتمالية، وتبين لنا الآيات القرآنية التالية مبدأ الحصر الشامل في المنهج الرباني:

(إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) [1]

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) [2]

(وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) [3]

(وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا) [4]

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) [5]

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ) [6]

ولا شك بأن هذا الحصر التام والشامل في دراسة الظواهر متعذر على البشر بما يمتلكونه من حواس ووسائل وتقنيات لجمع البيانات، لذا تكمن قيمته وفائدته بالنسبة

---

(1) سورة ق: الآية (17–18).

(2) سورة الزلزلة: الآيتان (7–8).

(3) سورة الطلاق: الآية (12).

(4) سورة الجن: الآية (28).

(5) سورة الكهف: الآية (49).

(6) سورة الأنبياء: الآية (47).

لمنهج البحث في تبيانه للنموذج المثالي، أو ما يجب أن يكون عليه مجال الدراسة، وإذا كان البشر غير قادرين على بلوغ هذه الدرجة المثلى والقصوى من الحصر والشمولية وإحصاء كافة الحالات والوقائع قبل بناء استنتاجاتهم عليها ووضع أحكامهم بشأنها فإن من واجبهم السعي إلى مقاربة هذه الحالة.

دقة القياس

يعتبر القياس من أهم عناصر ومستلزمات البحث عن المعرفة، إذ تعتمد البحوث في العلوم الطبيعية اعتماداً كلياً على القياس، ولولا القياس لتوقفت المعرفة عند مرحلة التفكر والحدس والملاحظات البسيطة، وقد عرف القدماء أهمية القياس في حياتهم اليومية ولأغراض المعرفة، فاهتدوا إلى وسائل لقياس الزمن والمسافات والزوايا، واستعملوها في دراساتهم الفلكية والهندسية والرياضية وغيرها، ولكن ظلت وسائل القياس معدودة، ودقتها محدودة حتى زمن قريب نسبياً.

تصنف وسائل القياس أو المقاييس حسب دقتها وخصائصها، ويعتبر المقياس النسبي ratio scale أفضل وأدق أنواعها، لأن الفروق بين وحداته متساوية، ويعني هذا بأن الفرق بين ثلاث غرامات وغرامين يساوي الفرق بين مائة وتسع وتسعين غراماً، كما يتميز هذا المقياس بوجود صفر مطلق absolute zero وتلاحظ هاتين الخاصيتين في مقاييس الطول مثل المسطرة، ومقاييس الوزن كالميزان. ويستعمل الباحثون أيضاً مقاييس أقل دقة مثل مقياس الفترات المتساوية interval scale والذي تكون فيه الفروق بين وحدات قياسه متساوية، كما هو الحال في المقياس النسبي، إلا أن صفره ليس حقيقياً ولا مطلقاً، بل هو بمثابة صفر متفق عليه عرفاً، والمثال على ذلك هو مقياس الحرارة، ومن المعروف وجود مقياسين للحرارة هما الفهرنهايت والسنتغراد، وفي كليهما صفر، إلا أن هذين الصفرين غير متكافئين، وعلى الرغم من ذلك فلا غنى للفيزيائيين وغيرهم من العلماء عن هذين المقياسين.

ويعتبر تدني كفاءة المقاييس نقطة ضعف رئيسية في العلوم الاجتماعية، وأحد أسباب عدم ارتقائها إلى مصاف العلوم الطبيعية، ويعتمد المختصون في الحقول الاجتماعية مقاييس، يصممونها بأنفسهم، ولا يوجد اتفاق عام حولها، مثلما هو الحال في العلوم الطبيعية، لذا فقد يختلف قياس ظاهرة من بحث إلى آخر، مما يضع عقبة كبيرة أمام إمكانية مقارنة وتعميم النتائج والاستنتاجات.

تؤكد الآيات القرآنية على مبدأ القياس الدقيق وضرورة استعمال أمثل المقاييس وهو الميزان، في التوصل إلى النتائج والأحكام:

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [1]

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فأولئك هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [2]

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [3]

وقد استن الله الحساب الدقيق المبني على الحصر والقياس بميزان تام الدقة بحيث يسجل أصغر الأوزان، أي: مثقال ذرة أو مثقال حبة من خردل:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [4]

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [5]

---

(1) سورة الشورى: الآية (17).

(2) سورة الأعراف: الآية (8–9).

(3) سورة الأنبياء: الآية (47).

(4) سورة النساء: الآية (40).

(5) سورة الزلزلة: الآيتان (7–8).

وهذه دلالات واضحة على أهمية القياس، ولو قارنا الحساب الرباني للبشر مع عملية البحث، لوجدنا في الحساب الأخير للناس، كافة عناصر ومقومات البحث، وبصورتها الأمثل، فكما أن لكل بحث هدف أو مسألة يراد حلها فإن هدف الحساب الرباني إصدار الأحكام على الناس حسب أعمالهم، وبينما يلجأ الباحثون في معظم الحالات إلى بيانات محدودة عن الظاهرة أو الظواهر قيد البحث يعتمد الحساب الرباني على الحصر الشامل لكل الحالات، كما يتميز بالدقة المتناهية في القياس مقارنة بالقياسات محدودة الدقة التي يستخدمها الباحثون، ويتضح من ذلك أهمية القواعد الربانية في بيان الحالة المثالية لخصائص وشروط البحث والتوصل إلى الاستنتاجات وإصدار الأحكام.

جمع البيانات

بعد اكتمال استعدادات الباحث من تعريف لهدف ونطاق البحث واختيار المقاييس الملائمة تبدأ مرحلة جمع البيانات، وتستدعي هذه المرحلة أيضاً انتقاء أفضل وسائل وطرق جمع البيانات مثل الملاحظة وإجراء الاختبارات، وتتحدد قيمة البحث والقبول بنتائجه باكتمال وصحة ودقة بياناته، فإذا تأكد أن البيانات غير كاملة، أو أثيرت الشكوك حول صحتها سيحجم المختصون عن قبول نتائجها، لذا يحرص الباحثون كل الحرص على أن تتوفر في بيانات بحوثهم كافة الشروط والمتطلبات التي تفرضها المنهجية العلمية الرصينة.

يرتبط اشتراط إسناد النتائج بالبيانات والأدلة المحسوسة بالمنهجية العلمية، وحتى زمن ليس بالبعيد كانت الطريقة المتبعة من قبل المفكرين والعلماء والفلاسفة في التوصل إلى النتائج والاستنتاجات هي التأمل واستعمال العقل والمنطق، ولم ينطوي ذلك على جمع بيانات تفصيلية عن الظاهرة وفق خطة محكمة، إذ يكتفي المفكر بملاحظة الظاهرة بصورة عابرة، ثم يلجأ إلى عقله باحثاً في مكنونه عن تفسير أو تفسيرات منطقية ومقنعة لهذه الظاهرة، وفي أفضل الحالات تكون البيانات المستعملة في هذه الطريقة ضئيلة وطريقة جمعها غير منهجية، لذا فقد كان الفيلسوف وحتى نهاية القرون الوسطى عالماً موسوعياً،

ملماً بكافة العلوم والمعارف، لأن هذه المعرفة محدودة، ويكفي إتقانه للمنهج التأملي والمنطقي لاستيعابها والمساهمة في تنميتها.

يتضمن القرآن الكريم إشارات واضحة وجلية إلى ضرورة الاعتماد على أدلة كافية في بناء الاستنتاجات وإصدار الأحكام، واشتراط أن تكون هذه الأدلة مادية، أي مستمدة من الواقع، وأن تكون صحيحة ودقيقة، وينهى نهياً قاطعاً عن الاكتفاء بالظنون أو أنصاف الحقائق أو الإفادات المشكوك في صحتها، ويؤكد على التمييز بين الحقيقة والظن وضرورة اكتمال الأدلة المادية والبيانات اللازمة، ووفقاً لهذا التصنيف تعتبر معظم الأفكار الفلسفية والمعرفية المتداولة حتى وقت قريب نسبياً ضرباً من الظن أو التخمين المفتقر إلى الإفادات الكافية والبيانات الصحيحة، وحكم القرآن الكريم على الظن صريح وقاطع في رفضه كأساس للمعرفة:

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)[1]

(وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ) [2]

(وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) [3]

(وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا) [4]

---

(1) سورة يونس: الآية (36).

(2) سورة فصلت: الآيتان (22-23).

(3) سورة الأنعام: الآية (116).

(4) سورة النساء: الآية (157).

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ [1]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [2]

والظن استنتاج عقلي غير دقيق، وصحته محتملة وليست يقينية، واعتماد الظن دليل آخر على إمكانية انجراف العقل أحياناً وراء الأحكام غير الصحيحة أو غير الدقيقة، مما يعزز مقولة نظام المعرفة الإسلامي بحاجة العقل إلى الانضباط بالمنهجية الصحيحة، ويكمن الفرق بين الظن والحق في استناد الأول على معلومات غير مكتملة أو غير صحيحة في التوصل إلى الاستنتاج والحكم، أما الحق أو الحقيقة فتتمثل فيه كافة شروط المنهجية الصحيحة من معلومات مكتملة وموثوقة الصحة، وتحليل متجرد واستنتاج على قدر المعرفة، لذا فإن الأمر بنبذ الظن واعتباره أساساً غير مقبول – بل وحتى محرم – للمعرفة تأكيد على أهمية تقصي البيانات الصحيحة، ومن المهم أيضاً أن تكون البيانات مكتملة وشاملة، كما يتبين من الجزء التالي في هذا الفصل.

اكتمال البيانات

يوصف زماننا المعاصر بصفات عديدة، تبرز أهم خصائصه الحضارية والمعرفية والتقنية، ومن بين هذه الخصائص "ثورة المعلومات"، التي تؤكد على تنامي المعارف والمعلومات في كافة الحقول إلى درجة مذهلة، بحيث أصبح من المستحيل على أي فرد الإلمام ولو بجزء يسير منها، كما تدلل هذه الصفة المميزة لزماننا على أهمية المعلومات لكافة نواحي الحياة والنشاط البشري، إذ لم يعد بمقدور أي فرد أو منظمة العمل والنجاح بدون معلومات، حتى أصبح التنافس حول حيازة المعرفة والمعلومات أكثر حدة من التنافس على الموارد الطبيعية والثروات، وتتبارى النظم السياسية والمنظمات والشركات

---

(1) سورة النجم: الآية (23).

(2) سورة الحجرات: الآية (12).

على اقتناء وتنمية المعارف والمعلومات واجتذاب أصحابها، حتى اقترن السبق في القوة والتنمية في كافة نواحيها بالمعرفة، فالأكثر علماً ومعرفة هو في نفس الوقت الأكثر قوة وتطوراً ونماءً.

يدرك الباحثون أكثر من غيرهم أهمية المعلومات أو البيانات لبلوغ أهداف بحوثهم، والبيانات أشبه بالمادة الأولية لعملية البحث وتنمية المعرفة. فكما أن مصانع الإنتاج أو التكرير تتطلب مواداً أولية، تحولها من خلال عمليات ميكانيكية وكيمائية وغيرها إلى منتجات مرغوبة، فإن البحث عملية منهجية لتحويل بيانات إلى نتائج أو معرفة ذات قيمة، وبالطبع ينبغي أن تكون هذه المعلومات كاملة ومفصلة وصحيحة ليكون بالإمكان التوصل إلى نتائج دقيقة، فالباحث الذي يريد دراسة سلوك الحيتان لا يكتفي بملاحظة قطيع صغير منها خلال شهر واحد من شهور السنة، بل يعمد إلى ملاحظة عدة قطعان ولفترات زمنية أطول لجمع بيانات أغزر تتيح له التوصل إلى نتائج أكثر صدقاً.

يتضمن القرآن الكريم إشارات عديدة إلى ضرورة توخي البيانات والأدلة الكافية في وضع القرارات والأحكام، وتقدم قصة البقرة التي أمر الله بني إسرائيل بالتضحية بها مثالاً واضحاً على ضرورة البيانات الشاملة والتفصيلية للتعرف على الظاهرة:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِين قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وَإِنَّا إِنْ شاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ﴾[1]

(1) سورة البقرة: الآيات (67–71).

تبدأ هذه الآيات من سورة البقرة بأمر رباني ينقله موسى (عليه السلام) إلى قومه، ثم تدور محاورة غير مباشرة بينهم وبين الخالق، يكون النبي الوسيط فيها، يسألون فيها بيانات تفصيلية عن البقرة التي يراد التضحية بها، ويجيب الله على كافة أسئلتهم، ويستنتج من ذلك كون تلك الأسئلة مباحة، فلو كانت مثلاً تطلب أموراً محرمة أو معرفة يختص الله بها ولا يبوح بها إلا لمن يختار من خلقه لما استجاب لهم، فالأسئلة إذن مقبولة وفيها مصلحة للخلق وإلا لنهى الله عنها. وقد تطرقت الأسئلة إلى ثلاث جوانب:

- الصنف.
- اللون.
- الخصائص أو الصفات.

وأتت الإجابات على الأسئلة بشكل بيانات أو حقائق دقيقة، وكما يلي:

(بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ).

(بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ).

(بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها).

ويستدل من الاستجابة الربانية لهذه الأسئلة على مشروعية وإيجابية الفضول المعرفي، الذي يهدف إلى الدقة في الوصف والتشخيص، ويلاحظ وجود تطابق ملفت للنظر بين المواضيع الثلاث للأسئلة ومنهجية الملاحظة الميدانية في العلوم الطبيعية، أي الصنف واللون والخصائص الأساسية، والتي يركز عليها العلماء الباحثون عند جمعهم للبيانات عن المخلوقات الحية من حيوان ونبات وكذلك الجماد مثل المعادن؛ للتعرف عليها وتصنيفها.

طرق جمع البيانات

تحتم أهمية البيانات اختيار أفضل وسائل جمع البيانات وأكثرها كفاءة، وتصنف طرق جمع البيانات بصورة عامة إلى: وسائل مباشرة مثل الملاحظة أو المشاهدة، ووسائل غير مباشرة مثل استخراج البيانات من إحصائيات أو سجلات منشورة أو محفوظة لبحوث سابقة. وتعتبر الملاحظة الوسيلة الرئيسية لجمع البيانات والتي يستعملها الباحثون في مختلف حقول المعرفة، مثل عالم الأحياء الذي يراقب فصيلة من الحيوانات لدراسة تكيفها مع بيئتها، أو عالم الجيوفيزياء الذي يتابع عن كثب ثورة بركان ليكتب بحثاً عن هذا الموضوع، كما قد تكون هي الاختيار الأول لعالم الاجتماع الذي يريد دراسة أنماط الاتصال والتفاعل داخل مجموعة صغيرة من الأفراد. وبالمقابل، فقد يلجأ عالم الأنثروبولوجي إلى طرح أسئلة على أفراد قبيلة بدائية لكي يستعمل إجاباتهم وإفادتهم في دراسة عاداتهم الاجتماعية. وبشكل عام تعتبر الملاحظة طريقة أكثر كفاءة نسبياً من الطرق غير المباشرة التي تعتمد على الإفادة أو المصادر الثانوية في الحصول على البيانات، إذ من المحتمل أن تتأثر البيانات المتحصلة بالطرق غير المباشرة بإدراك مصدرها وتحيزاته المؤثرة في تفكيره، مما يقلل من صحة ودقة البيانات.

تشير بعض الآيات القرآنية إلى الملاحظة أو الرؤية باعتبارها أقوى الوسائل للحصول على الأدلة المادية، والتي من خلالها يتأكد الرائي وبواسطة حواسه – وبالأخص البصر – من حدوث الظاهرة وبتقصي خصائصها وصفاتها، ومن خلال هذه الطريقة يستدل الإنسان على أن الوجود ناتج عن عملية خلق من قبل الخالق الواحد:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [1]

---

(1) سورة العنكبوت: الآيتان (19–20).

كما يتعظ الفرد من رؤية العواقب الوخيمة للشرور والظواهر الطبيعية المؤثرة في النفس:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [1]

وكانت الرؤية هي الوسيلة التي من خلالها تعلم قابيل كيفية موارة جثة أخيه المقتول الثرى:

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ [2]

كما أن رؤية الظواهر الكونية وسيلة لتحصيل المعرفة:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [3]

وقد طلب النبي موسى (عليه السلام)، كليم الله، رؤية الخالق لأن الرؤية حاسة ووسيلة للملاحظة أعظم درجة من السمع:

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [4]

كما أن النبي إبراهيم (عليه السلام) سأل الله أن يريه كيفية إحياءه للموتى، ومن المعروف أن مسألة النشور أصعب الأمور تصديقاً لدى الكثير من القدماء والمعاصرين:

---

(1) سورة النمل: الآية (69).

(2) سورة المائدة: الآية (31).

(3) سورة يونس: الآية (5).

(4) سورة الأعراف: الآية (143).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (1)

فالطلب هنا مقترن باطمئنان القلب أو العقل؛ لأن الرؤية هي المصدر الموثوق للمعلومة، والتي من خلالها يتحقق الفرد من وجود الظاهرة، ويقتنع بذلك تمام الاقتناع، الذي لا يرقى له الشك، وهو نفس السبب الذي حدا بحواري النبي عيسى (عليه السلام) طلب تنزيل مائدة من السماء.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (2)

وجاءت الاستجابة الربانية مشفوعة بالوعيد لأن الرؤية هي أعظم درجات البرهان، ولا عذر البتة للتكذيب بعد ذلك:

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ (3)

ويرتبط مفهوم الشهادة بالرؤية، فالشهادة هي إثبات الرؤية، والشاهد هو الفرد الذي شاهد الحدث أو استمع إلى القول بنفسه وقادر على الإفادة بذلك:

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ (4)

---

(1) سورة البقرة: الآية (260).

(2) سورة المائدة: الآيات (112–114).

(3) سورة المائدة: الآية (115).

(4) سورة يوسف: الآية (26).

ويتحدى القرآن الكريم مروجي الأكاذيب بسؤالهم إن كانوا قد شهدوا ما يروجون له من أباطيل:

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [1]

وعندما يدلي الفرد ببيان محدد فهذه شهادة، وعليه أن يتأكد من صحة هذا البيان قبل التفوه به وادعاء صحته، ولأن الشهادة – أي إثبات الملاحظة الصحيحة للمعلومات – هي أقوى الأدلة فستكون الأساس للحساب الرباني يوم القيامة:

﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [2]

ومن الجدير بالذكر أن السمع والبصر واللمس هي وسائل الحس الأساسية التي من خلالها يستقبل العقل المعلومات.

وأكدت التعاليم الدينية على ضرورة عدم كتمان الشهادة وتوخي الدقة والأمانة في التسجيل والنقل؛ لضمان التوصل إلى الحقيقة الناصعة، ووضع الاستنتاجات وإصدار الأحكام العادلة، وهي نفس الشروط التي تضعها منهجية البحث العلمي للاطمئنان إلى صحة البيانات المستقاة من مصادرها الأولية، ومن هذه الشروط أيضا الثقة بالمصدر، وكما تنبه إليه الآية التالية:

---

(1) سورة الزخرف: الآية (19)

(2) سورة فصلت: الآيتان (20–22).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [1]

وتتضمن هذه الآية توجيهاً دقيقاً في اعتبار فسوق ناقل المعلومة سبباً موجباً للتشكيك في صحتها، ولكنه ليس حكماً قاطعاً بعدم صحتها، إذ قد تحتمل الصواب أو الخطأ، ولأن المصدر غير موثوق به تعتبر شهادته موقوفة حتى تتحرى صحة المعلومات، وقدمت قضية الإفك مثالاً واضحاً على ضرورة التحقق من صحة البيانات قبل القبول بها وبناء الاستنتاجات والأحكام عليها:

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾[2]

وقدمت هذه الحادثة فائدة في كشفها عن جسامة المسؤولية المترتبة على نشر البيانات الكاذبة والآثار الضارة لعدم التحقق من صحة الإفادات قبل اعتمادها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [3]

الأمانة العلمية

يقيَّم البحث من قبل المختصين الذين يمتلكون المعرفة الكافية للحكم على موضوع البحث وسلامة منهجيته ودقة وجدوى نتائجه، وسواءً كان البحث فردياً أو جماعياً، مختبرياً أم ميدانياً أم مكتبياً، فلا أحد يشهد على صدق وأمانة الباحث أو فريق الباحثين، وقد اعترف بعض الباحثين المرموقين بتلاعبهم ببيانات بحوثهم أو نتائجها من أجل ضمان نشر نتائج هذه البحوث، وتبوأ المنزلة العالية بين أقرانهم، وما قد تدر عليهم من مكاسب مادية

---

(1) سورة الحجرات: الآية (6).

(2) سورة النور: الآيتان (15-16).

(3) سورة النور: الآية (11).

ومعنوية، وهذا الضعف البشري المتأثر بالمصلحة الضيقة كامن في الجميع، بما فيهم العلماء والباحثون، ولا توجد وقاية مضمونة ضده سوى قيم وأخلاق الباحث، التي يمكن أن تردعه عن الإقدام على تزوير أو تحوير البيانات أو النتائج، وأفضل مصدر لذلك من منظور المعرفة الإسلامي هو الهدى الرباني، وقد أكد القرآن الكريم على ضرورة الأمانة في نقل المعلومة – أو ما يعرف بين الباحثين بالأمانة العلمية – لذا اعتبر ادعاء النبوة أو اختلاق وتزوير أو تحريف الوحي أفدح الخطايا:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ) [1]

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ) [2]

(مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ) [3]

(مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) [4]

ولعل أبلغ دليل على أهمية الأمانة في النقل الوعيد الصارم الموجه للنبي (صلى الله عليه وسلم) وهو المعصوم، فيما لو أخل بهذا المبدأ:

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) [5]

---

(1) سورة العنكبوت: الآية (68).

(2) سورة الأنعام: الآية (93).

(3) سورة الأنعام: الآية (144).

(4) سورة المائدة: الآية (103).

(5) سورة الحاقة: الآية (44–47).

وتبين الآية التالية القاعدة العامة بشأن الأمانة العلمية، والتي تنهي عن التفوه بالقول دون دليل مادي مستمد من المعرفة الحقة أو الملاحظة:

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)[1]

التحيزات

إن كفاءة وسائل جمع البيانات محدودة، ومن أهم أسباب ذلك التحيزات **biases**، التي قد تكون وراء اختيار الباحث عينة غير ممثلة للواقع، أو تجعل إدراكه للبيانات انتقائي، وبما أن صحة نتائج البحث معتمدة على اكتمال ودقة بياناته فلابد من درء هذه التأثيرات السلبية، وهذا ما دفع المختصين بمناهج البحث إلى الاهتمام بتشخيص مصادر وأشكال التحيزات وكيفية الوقاية منها.

من المحتمل أن تؤثر التحيزات في أي من مراحل البحث بدءً باختيار وتعريف المسألة أو الظاهرة المراد بحثها حتى آخر مرحلة وهي وضع الاستنتاجات، فقد يغفل الباحث بعض الحقائق معتمداً – وبصورة واعية أو غير واعية – لتعارضها، في الظاهر أو الباطن، مع أهواءه أو توقعاته أو أحكامه المبدئية على الظاهرة، والمثال على ذلك: إهمال باحث اجتماعي للدوافع الذاتية المصلحية وراء الجرائم المرتكبة من قبل أفراد ينتمون إلى أقلية عرقية معينة، مدفوعاً باقتناعه المبدئي بأن الدافع الرئيسي لارتفاع معدلات الجريمة بين هذه الأقلية يكمن في التفرقة والاضطهاد الواقع عليها، وبسبب هذا التحيز المبدئي الذين سيؤثر ابتداءً بمرحلة جمع البيانات، سيحصل هذا الباحث على نتائج مغايرة بدرجة أو أخرى للحقيقة والواقع، ولأسباب مماثلة أو مختلفة قد يعمد باحث إلى صياغة أسئلة البحث، التي يريد التوصل إلى إجابات عليها، بطريقة متحيزة، وتقوده بالتالي إلى نتائج معينة أو على الأقل ترفع من احتمال ظهور هذه النتائج.

---

(1) سورة الإسراء: الآية (36).

ومن المعروف أن نطاق انتباه الفرد **span of attention** محدود، لذا لا يدرك أو يستوعب تماماً الظواهر والأحداث التي تحيط به، ولكل إنسان –كما يقال نقاط غفلة **blind spots**، تنحجب فيها الرؤية، أو تصبح ضبابية، ومهما بلغت كفاءة الحواس البشرية فإنها لا تبلغ الدرجة التامة في كمال الإدراك، مما يحتم أن تكون البيانات المستقاة بواسطة هذه الحواس مشوبة بدرجات متفاوتة من النقص والتحريف.

بالإضافة إلى التركيز على أهمية شحذ العقل والحواس لإدراك الحقائق الناصعة تؤكد الآيات القرآنية على ضرورة اتقاء وتجنب طمس أو تحريف أو اختلاق البيانات، وتشخص مكامن هذه التحيزات بدقة تامة، وتبين ما ينتج عن ذلك من معتقدات ومواقف خاطئة، وتشكل هذه التحيزات غشاوة أو غطاءً على الحواس والعقل، مما يقل من كفاءتها ومن مظاهر يوم الحساب اختفاء هذه الحجب بحيث يستطيع الفرد إدراك الحقيقة بأم عينيه بعد أن كان في الحياة الدنيا غافلاً عنها:

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [1]

ويستنتج من هذا الوعد الارتباط بين حدة البصر وإدراك الحقائق، وعندما تنخفض حدة البصر تقل كفاءة الرؤية أو الإدراك، حتى درجة إغفال الحقائق تماماً، وتبني الاستنتاجات الخاطئة.

أنواع التحيزات

يذكر القرآن الكريم أنواعاً من التحيزات المقيدة للإدراك والعقل، والتي يتوجب على الباحثين عن المعرفة الانتباه لها، والوقاية من تأثيراتها. ومن أبرز هذه التحيزات: التعصب للمعتقدات المتوارثة من الآباء والأجداد؛ إذ من الصعب على الفرد ترك هذه المعتقدات؛

(1) سورة ق: الآية (22).

لأن في ذلك إقراراً بخطأ الأسلاف في العقيدة والمنهج، وهو ما يرفضه الكثيرون رفضاً قاطعاً، وقد يدفعهم التشكيك بعقائدهم الموروثة إلى التعصب لها بدرجة أكبر، وهذا ما تشير الآيات التالية:

(وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)[1]

(أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) [2]

(فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ)[3]

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) [4]

(إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ) [5]

---

(1) سورة الزخرف: الآيات: (20–24).

(2) سورة هود: الآية (62).

(3) سورة يونس: الآية (76–78).

(4) سورة المائدة: الآية (104).

(5) سورة الصافات: الآيتان (69–70).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [1]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [2]

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [3]

وقد يكون مصدر التحيزات تأثيرات السلطة الحاكمة، وفرضها لمعتقدات أو أفكار معينة على رعاياها:

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [4]

وتشير الآية التالية إلى ضلال أتباع فرعون نتيجة إطاعتهم له:

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [5]

كما قد تدفع ضغوط الأقران **peer pressures** الفرد إلى تبني آراء ومواقف متجانسة مع أفكارهم ومعتقداتهم، حتى لو كانت خاطئة، كما تبين الآية التالية:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي

---

(1) سورة سبأ: الآية (43).

(2) سورة لقمان: الآية (21).

(3) سورة الأعراف: الآية (70).

(4) سورة الأحزاب: الآيتان (67-68).

(5) سورة الزخرف: الآية (54).

لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً) [1]

وتبرز الأهواء المتأثرة بالاعتبارات المصلحية الضيقة والآنية كمصدر للتحيزات، وإذا لم تكن الحقائق غير متوافقة مع الأهواء فقد ينجرف العقل وراء الأهواء، وما يستتبع ذلك من تحيزات وأخطاء في الفهم والاستنتاج والعمل:

(كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ) [2]

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) [3]

وبالرغم من وضوح التعارض بين الحق والأهواء تعارضاً صارخاً، وكون ترك الحقائق واللهاث وراء الأهواء هو أقصر الطرق للفوضى والخراب، إلا أن إغراءات الأهواء تحجب ذلك عن الكثيرين:

(بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ) [4]

وبدلاً من استقبال المعلومة الجديدة بذهن منفتح يحكم البعض عليها، وبدون الاستناد إلى أدلة وبراهين، بأنها أكاذيب وأساطير مختلقة:

(وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) [5]

---

(1) سورة الفرقان: الآيات (27–29).

(2) سورة المائدة: الآية (70).

(3) سورة سبأ: الآية (34).

(4) سورة المؤمنون: الآيتان (70–71).

(5) سورة الأنفال: الآية (31).

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [1]

وقد يلجأ الرافض للمعلومة إلى اختلاق أي ذريعة لتبرير أو تمويه موقفه المبدئي، فبدلاً من انتقاد المعلومة يهاجم ناقلها ويشكك في دوافعه:

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [2]

وقد لا يحجمون حتى عن اختلاق التهم لناقل المعلومة، مثل: اتهامه بالجنون أو يشيعون بأنه ساحر أو شاعر:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [3]

﴿كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناصٍ وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ﴾ [4]

﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ [5]

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [6]

---

(1) سورة الفرقان: الآية (5).

(2) سورة المؤمنون: الآية (24).

(3) سورة المؤمنون: الآية (25).

(4) سورة ص: الآية (3-5).

(5) سورة طه: الآية (63).

(6) سورة الأنبياء: الآية (5).

وقد تبلغ التحيزات من القوة بحيث تدفع صاحبها إلى رفض الحقائق المادية المحسوسة، ويبرر ذلك بأن الحقيقة المرئية ناتجة عن اضطراب مؤقت في الإدراك أو العقل، أو شيء من قبيل الهلوسة، وليست موجودة بالفعل:

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [1]

ومن الممكن أيضاً أن يكون الرافضون للحقائق، بسبب انسياقهم وراء أهوائهم ومصالحهم الذاتية أو تعصبهم لموروثهم العقائدي، مقتنعين بصحتها ولكنهم يرفضون الإعلان عن ذلك:

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [2].

---

(1) سورة الحجر: الآيتان (14–15).

(2) سورة النمل: الآيتان (13–14).

الفصل الرابع
البرهان والتجربة والاستنتاج

يسعى الباحثون وراء المعرفة، وقد تقتصر هذه المعرفة المستهدفة على مجرد ملاحظات مسجلة حول صفات وخصائص ظاهرة ما، أو قد تتعدى ذلك إلى تقصي تأثيرات عوامل معينة على الظاهرة المبحوثة، أو لربما بلغت أقصى طموحات الباحثين في اكتشاف سبب أو أسباب حدوث الظاهرة، ويتوجب على الباحث تقديم الحجج والأدلة المقنعة، المبنية على الملاحظات والمعلومات، قبل وضع الاستنتاجات، وتعتبر التجارب الميدانية والمختبرية أقوى البراهين، لذا هي أفضل طرق البحث. ويتركز الاهتمام في هذا الفصل على أهمية البرهان وأنواع البراهين في النظام المعرفي الإسلامي.

البرهان

تدعو الآيات القرآنية، وبصورة لا تقبل الجدل أو الاختلاف في التفسير، إلى مقارعة المخالفين والمشككين والمكذبين بالحجج والبراهين والجدل الفكري، لا بالسيف والرمح، ويوصف القرآن الكريم كله بأنه برهان:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا) [1]

ولا يحسم الخلاف العقائدي بانتصار الأقوى بدنياً أو الأفضل تسليحاً، بل البرهان الأقوى والحجة الأمضى، وتعبر الآيتان التاليتان عن جوهر الحوار الصحيح مع المعارضين:

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) [2]

---

(1) سورة النساء: الآية (174).

(2) سورة البقرة: الآية (111).

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [1]

هل سينتهي الجدال ويحسم النقاش في يوم الحشر عندما يقوم الناس من أجداثهم ليحاسبوا على أعمالهم؛ لأن ذلك سيكون الدليل القاطع على صحة الرسالة الربانية وما تتضمنه من عقائد وتعليمات؟ تبين لنا الآيتان القرآنيتان التاليتان بأن حتى في ذلك اليوم الرهيب سيطلب من معارضي الرسالات الربانية الدفاع عن مواقفهم وأعمالهم بتقديم البراهين:

﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [2]

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [3]

وما دام الخالق قد استن لنفسه الحكم على أساس البرهان والدليل، فلابد أن تكون هذه قاعدة ثابتة وملزمة للجميع، فلا يجوز وضع الاستنتاجات والأحكام بدون براهين وأدلة، كما يتضح من الآية التالية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ [4]

قد يحتدم الجدال السلمي بين الأضداد العقائديين، فترتفع حدة النقاش، وهذا النوع من الجدال منهي عنه أيضاً؛ حفاظاً على تسامي العقل واحترام الحجة وسداً للأبواب على احتمال تدهور المجابهة إلى العنف اللفظي وحتى البدني، لذا ينهى القرآن الكريم عن سب

---

(1) سورة البقرة: الآية (23).

(2) سورة القصص: الآية (75).

(3) سورة النحل: الآية (111).

(4) سورة الممتحنة: الآية (10).

آلهة ومعتقدات الآخرين لئلا يردوا بالمثل، فتنتهي بذلك فرص إقناعهم بالرسالة، فيما تؤكد آيات أخرى على القيمة العليا للعقل وقوة البرهان.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [1]

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [2]

أنواع الأدلة

يوجد نوعان رئيسيان من الأدلة: عقلية أو جدلية، أو ميدانية، ويتميز النوع الأول باعتماد الملاحظات الاعتيادية أو المعرفة الدارجة للتوصل إلى استنتاجات. فعلى سبيل المثال، لا يحتاج الفرد إلى أدلة لإثبات أن العنف نمط من أنماط السلوك البشري، وتكفي الإشارة إلى الوقائع التاريخية وسجلات الشرطة، ولكن القول بأن تفكك العائلة أو ضعف الروابط العائلية سبب محتمل أو عامل مرتبط بالجنوح أو مخالفة القوانين وارتكاب الجرائم فرضية تتطلب الإثبات بالأدلة الإحصائية والشواهد الميدانية، كما أن استنتاج وجود علاقة سببية بين عصيات جرثومية من نوع معين والإصابة بمرض السل يستدعي تقديم دليل تجريبي أو اختباري يبرهن على أن مرضى السل، وعلى عكس الأصحاء، مصابون بهذه الجرثومة، فالنوع الثاني من الأدلة؛ إذن هو برهان حسي على وجود ظاهرة أو ارتباط بين ظاهرتين أو أكثر تتوفر فيه شروط منهجية محددة.

يستخدم الباحثون المعاصرون غالباً كلا النوعين من الأدلة في بحوثهم، إذ يستمدون أهداف بحوثهم وأفكارها الرئيسية، التي تكون إطاراً فكرياً وجدلياً لها، من أدبيات الموضوع، وما تحتويه من حقائق ونظريات، ومن ثم يحددون بدقة الجوانب التي يريدون

(1) سورة العنكبوت: الآية (46).

(2) سورة النحل: الآية (125).

التركيز عليها بصيغة أسئلة بحث، وقد يجيبون عليها بشكل فرضيات، والتي تعبر عن النتائج المتوقعة في ظل المعرفة المتوفرة، ويلجأ الباحث مرة أخرى إلى هذه المعرفة لوضع تصميم مناسب لبحثه وإعداد وسائل جمع البيانات واختيار أفضل الطرق التحليلية، وحتى تلك المرحلة في بحثه يستند الباحث كلية على المعرفة المتوفرة في إيجاد الحجج والمبررات لرؤيته وأفكاره. وبعد أن يجمع الباحث بياناته ويحللها يتوصل إلى نتائج، وهي أدلة تجريبية، تقوده إلى استنتاجات مبنية على براهين ميدانية أو تجريبية **experimental evidence**، ويمكن تصنيف الاستنتاجات الواردة في القرآن الكريم حسب سندها من الأدلة إلى ثلاثة أنواع:

– استنتاجات مبنية على حقائق متداولة مفروغ من صحتها وهي الأمثلة والأدلة العقلية.

– استنتاجات مستمدة من ملاحظات عامة **common observations**.

– استنتاجات مستندة إلى التجارب وهي أرقى ما توصلت إليه المنهجية العلمية من أدلة إثباتية أو نقضية.

وفيما يلي استعراض لهذه الأنواع الثلاثة:

الأمثلة والأدلة العقلية

يضرب الله الأمثال في القرآن الكريم لإثبات الحقائق للبشر، والأمثال أدلة مستمدة من المعرفة المتداولة، لذا لا تتطلب النزول إلى ميدان الواقع لجمع المعلومات، كما أن الارتباط بينها وبين الاستنتاج خطي ومباشر وجلي، وتتضمن الآية التالية أروع وأدق الأمثلة والأدلة العقلية–الجدلية:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [1]

ويبرهن هذا المثال على بطلان عبادة الأصنام أو أدعياء الألوهية من البشر، الذين لو أرادوا مجتمعين خلق ذبابة لما استطاعوا ولو حطت ذبابة على طعام أو شراب أي منهم، وسلبت ذرات منه، لاستحال عليه استخلاصها منها، وهكذا وبالمقارنة بأضعف المخلوقات يتضح ضعف وعجز الآلهة المزيفين، ولا يحتاج هذا المثال أو الدليل العقلي إلى أبحاث ميدانية أو تجارب أو اختبارات للبرهان على صحته، وهنا تكمن ميزته وقوته الرئيسية. وتبين الآية التالية من خلال مثال آخر الغرض من ضرب الأمثال:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [2]

واستهجن بعض معارضي الإسلام استعمال هذه الأمثال في القرآن الكريم انطلاقاً من رفضهم المبدئي والمتحيز للعقيدة الإسلامية، وأغفلوا قوتها العقلانية، فهي بقدر ما تكون مقنعة إلى أقصى الحد ميسرة للفهم والإدراك دون الحاجة إلى تفكير عميق، إلا إذا كان المتلقي متحيزاً ضدها بدرجة تجعله غير قادر على تقبلها، لذا فإن التفاتة هؤلاء المعارضين إلى مادة المثال والاستهزاء بذلك صرفهم عن إدراك معانيها الواضحة فازدادوا غياً بدلاً من الاهتداء للحقيقة:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي

---

(1) سورة الحج: الآية (73).

(2) سورة إبراهيم: الآيات (24–26).

بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) [1]

الاستنتاجات المبنية على ملاحظات ميدانية

يختلف هذا النوع من الاستنتاجات عن الأمثلة أو الأدلة الجدلية في اعتماده على بيانات أو ملاحظات ميدانية، إذ لا يكتفى هنا بالإشارة إلى المعرفة المتداولة بل يقوم طالب المعرفة أو الباحث بملاحظة الظاهرة، ومن ثم التوصل على أساسها إلى استنتاج، وهذه – باختصار شديد – هي الخطوات الرئيسية لأية عملية بحث تستخدم المنهجية العلمية، وتقدم الآية القرآنية التالية مثالاً على هذا النوع من الاستنتاجات:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) [2]

فالحقيقة المادية الأولى هي جدال أهل الكتاب حول دين النبي إبراهيم (عليه السلام) حيث ادعى اليهود بأنه على دينهم، ورد عليهم النصارى بأنه نصراني، والحقيقة الثابتة التي تذكرها الآية هي أن التوراة والإنجيل أُنزلا بعد عهد النبي إبراهيم (عليه السلام) مما يثبت بطلان الادعاءين، وهذا الاستنتاج الجدلي مبني على حقائق معروفة.

وقد يقوم الباحث بجمع الملاحظات بنفسه بدلاً من الاعتماد على المعروف والمتداول من الحقائق، ثم يضع استنتاجه، كما فعل النبي زكريا (عليه السلام)، الذي تصف الآية التالية ملاحظته لأحوال السيدة مريم، والدة المسيح (عليهما السلام)، وإيمانها ومن

---

(1) سورة البقرة: الآيتان (26–27).

(2) سورة آل عمران: الآيتان (65–66).

ثم دعاءه ربه – استنتاجاً على القناعة المتولدة في ذهنه بناءً على الملاحظات – أن يهبه الذرية الطيبة.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (1)

تبدأ عملية الاستنتاج بملاحظة النبي زكريا عليه السلام وجود الرزق لدى السيدة مريم، وتكرر حدوث ذلك كلما دخل عليها المحراب، وبعد استماعه إلى شهادتها بأنه من عند الله، وبأن الله يرزق بغير حساب، بادر إلى طلب الذرية الصالحة من الله، فاستجاب الله لدعائه.

شروط الاستنتاج

قبل الانتقال إلى موضوع التجربة والاختبار لابد من بيان شروط الاستنتاج الصحيح، وأول هذه الشروط أن يكون مبنياً على معلومات صحيحة، وإلا يكون الاستنتاج خاطئاً وغير مقبول، فالحقائق الناصعة هي الأساس الضروري للاستنتاجات الصحيحة، كما في حالتي الرد على أهل الكتاب بخصوص ديانة إبراهيم (عليه السلام) واستنتاج زكريا (عليه السلام) بشأن الاستجابة الربانية، والشرط الأساسي الثاني هو أن تكون الحقائق كلها مؤيدة للاستنتاج وإلا استدعى الأمر صياغة الاستنتاج بطريقة تعكس هذا الوضع، أي كون بعض الحقائق مؤيدة وبعضها غير مؤيد للاستنتاج، ويترتب على الباحث أن يكون أميناً ودقيقاً في استنتاجه وأن لا يدع أهواءه أو ميوله الشخصية ورغبته في وضع استنتاج قوي تدفعه إلى إبراز الحقائق الداعمة وطمس غيرها، فمن المعروف مثلاً بأن لمعظم الأدوية نتائج عرضية ضارة، وقد تكون مهلكة في بعض الحالات، لذا يعمد مصنعو الأدوية إلى وضع تحذيرات داخل كل عبوة دواء، وقد أدى إغفال صانعي دواء الثاليدوميد لذلك إلى حدوث العديد من

---

(1) سورة آل عمران: الآيتان (37–38).

حالات التشوهات الخلقية في مواليد اللواتي تعاطين الدواء. وتمثل الآية القرآنية التالية منتهى الأمانة والدقة في الاستنتاج:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا) [1]

فعلى الرغم من قطعية الحكم الشرعي بتحريم الخمر والميسر إلا أن الأمانة العلمية تفرض، كما تعلمنا الآية الكريمة، الالتفات إلى كافة النتائج، الإيجابية والسلبية، بخصوص الظاهرة، أي منافع ومضار الخمر والميسر في هذه الحالة، ثم يوضع الاستنتاج على أساس قياس ومقارنة موضوعية لهذه النتائج، والذي يبين أن مضار الخمر والميسر أكبر من منافعهما، لذا اقتضى الحكم بتحريمهما.

وتتطلب الدقة في الاستنتاجات والأحكام الاعتراف بوجود مراتب وسط بين الحالتين الطرفيتين، إذ ليس لكل شيء حالتان فقط، أي أبيض وأسود، أو خير أم رديء، كما يقولون، بل هنالك مراتب ودرجات بين هاتين الحالتين، فكما أن الجو يكون صحواً أو غائماً أو غائماً جزئياً، كذلك قد تتدرج الظواهر على مستويات أو مراتب، وتشير الآية التالية بوضوح إلى هذه الحقيقة في وصفها للمنافقين بأنهم عند درجة ما بين الكفر والإيمان، ولكنها أقرب إلى الكفر:

(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ) [2]

---

(1) سورة البقرة: الآية (219).

(2) سورة آل عمران: الآية (167).

بالإضافة إلى بيان شروط الاستنتاجات الصحيحة يورد القرآن الكريم أمثلة على الاستنتاجات الخاطئة وأسبابها ومظاهرها، ومن أبرز الأمثلة التفسير المجحف الذي يقدمه اخوة يوسف (عليه السلام):

(قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ) [1]

فليس من الجائز الاستدلال أو البرهان على انحراف شخص ما اعتماداً على كون أخوه أو فرد آخر من عائلته منحرفاً، وذلك لانعدام الارتباط المنطقي بين الظاهرتين.

وفي قصة مصاحبة النبي موسى (عليه السلام) للعبد العالم يتأكد لنا قصور الاستنتاجات المبنية على معلومات ناقصة:

(قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا) [2]

وعلى الرغم من تحذير العبد الصالح للنبي بعدم التسرع في التوصل إلى استنتاجات وإصدار أحكام حتى تكتمل الحقائق أمامه فقد بنى النبي استنتاجاته الأولية على أساس الحقائق الظاهرية، التي لا تكفي لتفسير الأفعال التي أقدم عليها العبد الصالح.

ويخاطر الفرد الذي يبني استنتاجاته على بيانات ظاهرية غير مكتملة بأكثر من وضع استنتاجات عاجلة وغير دقيقة، إذ من المحتمل أن تكون استنتاجاته خاطئة بدرجة تبعده عن جادة الصواب؛ كما حدث لليهود وعبادتهم للعجل:

---

(1) سورة يوسف: الآية (77).

(2) سورة الكهف: الآيات (66–70).

(فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) [1]

(وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ) [2]

عبد قوم موسى (عليه السلام) العجل بعد أن شهدوا المعجزات الربانية العظيمة على يد نبيهم؛ مثل: العصا واليد وخروجهم من مصر وفلق البحر وغرق جيش فرعون، ويقتضي المنطق البسيط عكس ذلك، فقد اختاروا عبادة الصنم الذهبي، الذي ليس له من صفات سوى الشكل والخوار، ولم يلتفتوا إلى كونه عديم القوة والقدرة على مخاطبتهم وهدايتهم مقارنة بالخالق الذي اختصهم بمعجزات عظيمة، وبرهن لهم على قدراته العظيمة. وعلى الرغم من انعدام الأدلة المبررة لعبادة العجل وعظم الأدلة الموجبة لعبادة الله، فقد اختار قوم موسى (عليه السلام) عبادة العجل، وهذا استنتاج خاطئ.

التجارب العلمية

تمثل التجارب العلمية أسمى وأقوى أنواع الطرق للتوصل إلى الحقائق والاستنتاجات الصحيحة؛ لأنها تتيح للباحث اختيار الارتباطات السببية، والتأكد من وجودها، وبالتالي اكتشاف القوانين السببية في الطبيعة. فعلى سبيل المثال، الاختبار هو الطريقة المثلى للتحقق من أن الجراثيم هي سبب الإصابة ببعض الأمراض أو أن ارتفاع الحرارة يؤدي إلى تمدد الأجسام الصلبة، إذ يستطيع الباحث إحضار قطعة من المعدن ويقيس أبعادها ثم يعرضها للحرارة، ويكرر قياس أبعادها، وسيظهر له من مقارنة القياسات قبل وبعد حدوث أو عدم حدوث التمدد، كما يكفي إفلات جسم من أيدينا وملاحظة سقوطه إلى الأرض في كل مرة لإثبات قانون الجاذبية.

---

(1) سورة طه: الآيتان (88-89).

(2) سورة الأعرف: الآية (148).

تتمثل في تحطيم إبراهيم (عليه السلام) للأصنام كافة مواصفات وشروط التجربة العلمية الهادفة إلى إثبات أو نفي علاقة سببية، أي بين سبب ونتيجة، فكما يخبر القرآن الكريم أقدم إبراهيم على تحطيم الأصنام معبودة قومه، باستثناء أكبرهم، ولو حطمها كلها لما كانت هنالك تجربة علمية، وعندما سمع قومه بتحطيم أصنامهم غضبوا واتهموا إبراهيم بفعل ذلك، وأثناء استجوابهم له جابههم بإضافة احتمال آخر، ليصبح أمامهم سببان محتملان للحدث، أي تحطيم الأصنام، هما:

- حطم إبراهيم الأصنام.
- حطم كبير الأصنام بقية الأصنام.

وكما تبين لنا الآية التالية:

(وَلَقَدْ آتَيْنَآ إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُواْ وَجَدْنَآ آبَآءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللاَّعِبِينَ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ ٱلَّذِي فطَرَهُنَّ وَأَنَاْ عَلَىٰ ذٰلِكُمْ مِّنَ ٱلشَّاهِدِينَ وَتَٱللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)[1]

---

(1) سورة الأنبياء: الآيات (51–67).

نفى إبراهيم عن نفسه تهمة تحطيم الأصنام وألقاها على كبير الأصنام، متحدياً قومه وكبير معبوديهم بإثبات العكس من خلال سؤال هذا الصنم المعبود، ولو أشار كبير الأصنام بإصبع الاتهام إلى إبراهيم لكان ذلك كافياً، ولكن ذلك لم يحدث بالطبع؛ لأنه صنم جماد، وهكذا أثبت لهم إبراهيم من خلال التجربة العلمية – وليس الحجة العقلية فقط – بأن عبادة الأصنام باطلة لأنها عديمة الحول والقوة، وأن أي إنسان مهما أوتي من قوة ضئيلة قادر على الانتصار عليها وتحطيمها دون أن تقوى على ردعه، فالأصنام لم تنفع نفسها بدفع معول الهدم عنها أو على الأقل الشهادة على هوية محطمها، فإذا كانت لا تنفع نفسها فكيف يتوقع منها منفعة غيرها.

وعلى عكس الأصنام العاجزة بصورة مطلقة يمتلك خصوم الأنبياء والمرسلين من حكام وأتباع سلطة وقوة يرهبون ويستميلون بها الناس، مما استدعى إفحامهم بحجة أكبر، وهي المعجزة أو الفعل الخارق، وقد تحدى فرعون النبي موسى (عليه السلام) بإثبات تفوقه على السحرة، بعد اتهامه بالسحر، فأراد الله أن يثبت لهم بأن قوة الله التي تظهر على يد موسى أقوى من السحر، وذلك من خلال تجربة مقارنة بين القوتين، وتضمنت هذه التجربة مجموعتين: موسى ممثلاً القوة الربانية والسحرة نيابةً عن القوى الفرعونية، وكما يلي:

المجموعة الأولى: السحرة: سحروا أعين الناس.

المجموعة الثانية: موسى (عليه السلام): التقفت عصاه أعمال السحر.

وتصف الآية التالية أحداث هذه التجربة:

(قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ

تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [1].

وهكذا ثبت نتيجة التجربة بأن جبهة الله الممثلة بموسى أقوى من جبهة فرعون، وهذا ما استيقنه السحرة فسارعوا إلى الجهر بإيمانهم بالله.

تجربة البعث والنشور

تبدأ كل البحوث بسؤال، وكذلك بدأت تجربة الفرد الذي مر على آثار قرية مندرسة فتساءل عن كيفية إحياء الله لهذه القرية، وحتى يبرهن الله له وبصورة مباشرة هذه الحقيقة أماته قرناً من الزمن ثم بعثه من الموتى:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]

اشتملت التجربة هنا على مجموعة واحدة؛ لأن بقية الخلق، وإن لم يشتركوا في التجربة، هم مجموعة المقارنة أو السيطرة، الذين لم تتغير أوضاعهم عن الحالة الطبيعية المعتادة، وكان الشخص المعني بالتجربة هو مادة وبرهان التجربة في نفس الوقت، ومن خلال إجراء التجربة عليه وانتقاله من الحياة إلى الموت ومن ثم النشور، برهن الله له على قدرته على إحياء الموتى، وعبر هذا الشخص عن اقتناعه التام بذلك في قوله: ﴿أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾، فهذا العلم ناتج عن التجربة الحسية التي مر بها.

---

(1) سورة الأعراف: الآيات (115-122).

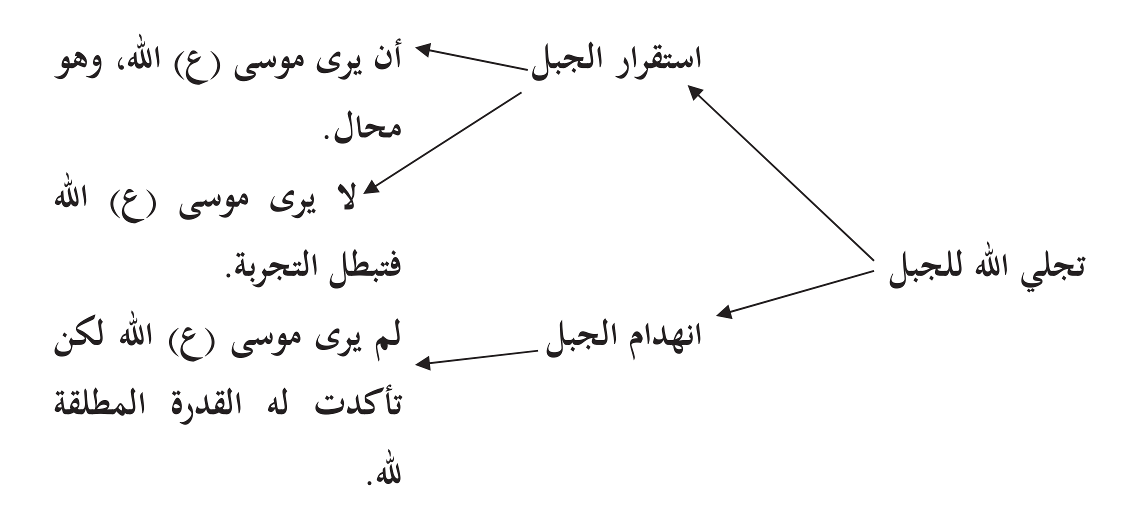
(2) سورة البقرة: الآية (259).

التجربة في طلب موسى (ع) رؤية الله

طلب النبي موسى (عليه السلام) رؤية الله، وهذا محال كما يتبين من الآية التالية:

(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي) [1]

ولكن أراد الله أن يبرهن لموسى على وجوده وقدرته وكونه لا تدركه الأبصار، فأجرى له تجربة اشتملت على تجلي الله للجبل: وكان من الممكن أن تنتج عن ذلك الحالات التالية:



فلو استقر الجبل ورأى موسى ربه لخالف ذلك وعد الله والحقيقة الثابتة في عدم إدراك الأبصار له: (قال لن تراني)، كما أن استقرار الجبل وعدم رؤية موسى لله، أي عدم وقوع أي حدث، وهو نقيض لوعد الله أولاً، ولا يقدم دليلاً إثباتياً، بل يمكن اعتباره دليل نقض، وبما أن الله لا يرى ولا تدركه الأبصار فالبديل الوحيد الدال على نجاح التجربة هو انهدام الجبل وعدم استطاعة موسى رؤية الله، وهذا ما تحقق بالفعل. وبهذه الطريقة برهن الله لموسى على قدراته المطلقة وبأن رؤيته غير ممكنة، وبالإضافة إلى ذلك تبين هذه

---

(1) سورة الأعراف: الآية (143).

التجربة بأن الاستدلال على الظواهر ممكن ليس فقط من خلال ملاحظتها، وإنما أيضاً من مشاهدة آثارها ونتائجها.

تجربة إحياء الموتى

يقص علينا القرآن الكريم التجربة التي شهدها النبي إبراهيم (عليه السلام) حول إحياء الموتى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [1]

بدأت هذه التجربة، وكما في كل التجارب والبحوث المنهجية الرصينة، بسؤال وكان موضوع هذا السؤال الذي طرحه إبراهيم على ربه حول كيفية إحياء الموتى، ويجدر الانتباه إلى احتواء صيغة السؤال على طلب الرؤية لا الدليل الجدلي، مما يستدعي إجراء تجربة يشهدها النبي، وهذا ما حدث بالفعل، إذا طلب الله من إبراهيم إحضار أربعة طيور وتقطيعهن وتوزيع أوصالهن على جبال مختلفة، ومن ثم استدعاءهن ليشهد بنفسه إحياء هذه الطيور. ولا تحتاج هذه التجربة إلى مجموعة سيطرة، فكما أن قطرة دم واحدة كافية لتحليل خصائص دم إنسان، فإن إحياء طير واحد دليل كاف لإثبات قدرة الله على إحياء الموتى، ولكن من المؤكد بأن إحياء أربعة طيور بعد تمزيقها إلى أشلاء أكثر صعوبة وتعقيداً من طير واحد؛ لضرورة إحياء كل واحد منها بذاته وعدم حصول تداخل في الخلق بعد النشور، كأن يكون للمخلوق (أ) رجل أو يد المخلوق (ب)، وفي ذلك حكمة عظيمة خافية على الكثيرين.

(1) سورة البقرة: الآية (260)

تجربة تعلم آدم

تشتمل تجربة تعليم الله لآدم على مجموعتين: مجموعة التجربة ومجموعة السيطرة، حيث تتعرض مجموعة التجربة للعامل المؤثر، والذي يراد إثبات كونه المسبب لحدوث ظاهرة أو نتيجة ما، في حين لا تتعرض مجموعة السيطرة لذلك، فإذا تبين بعد ذلك ظهور النتيجة المتوقعة لدى مجموعة التجربة فقط وخلت مجموعة السيطرة منها اعتبر ذلك دليلاً قاطعاً على وجود علاقة سببية بين العامل المسبب والنتيجة، وكما يلي:

-إدخال العامل السببي على مجموعة التجربة= ظهور النتيجة.

عدم إدخال العامل السببي على مجموعة السيطرة= عدم ظهور النتيجة.

وتصف الآية التالية هذه التجربة الأولى في تاريخ البشرية:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [1]

وتكونت مجموعة التجربة هنا من آدم ممثلاً للبشرية، إذ لم يكن هنالك سواه من بني جنسه، في حين شكل الملائكة مجموعة السيطرة، أما العامل السببي فهو تعليم الله آدم الأسماء، وحجبها عن الملائكة، ثم اختبار آدم والملائكة، فكانت النتيجة نجاح آدم في الاختبار، المتمثل في معرفته للأسماء واعتراف الملائكة بجهلهم بها، وبهذه الطريقة برهن الله لهم بأن علمه يسع كل شيء، كما أثبت لهم في نفس الوقت قدرة آدم على التعلم.

---

(1) سورة البقرة: الآيات (31-33).

خاتمة

انطلق هذا الكتاب من سؤال حول إن كان يوجد في الإسلام نظام للمعرفة ومنهجية بحث، والاشتراط أن يكونا بمستوى من الفاعلية والجودة لا يقل عما يتوفر في المنهجية العلمية الحديثة، وإلا سيصعب الاعتراف والقبول بالإسلام كنظام شامل للحياة.

تأكد نتيجة هذا الاستقصاء وجود أسس وعناصر كافية لنظام معرفي إسلامي متميز في خواصه، ومكتمل في مقوماته ومكوناته، وفعال في تقديم الشروح والتوضيحات العقلانية والمقنعة للظواهر الطبيعية والسلوكية – حتى لو لم يتفق البعض مع ذلك انطلاقاً من اعتبارات مبدئية خاصة بتعدي هذا النظام للطبيعة إلى ما وراءها –كما أن هذا النظام ليس مغلقاً ولا متجمداً، بل هو منفتح وقابل للتعلم والتطور، وبما يكفل توفير احتياجات مستعمليه من المعرفة.

يؤكد نظام المعرفة الإسلامي بصورة مطلقة على المعرفة، ويرفع من أهميتها وقيمتها إلى مصاف الصفات الربانية، إذ يربط بين انفراد الخالق بالعلم الكامل وبين قدرته المطلقة، وكذلك كونه المصدر الأول والأرفع للمعرفة، كما اقترنت المعرفة في هذا النظام بأسمى الصفات والقيم الإيجابية المرغوبة مثل النور والخير والصلاح والعدل. أما على المستوى البشري، فيقدم النظام تصوراً متكاملاً لدور المعرفة في الحياة البشرية مؤكداً على أهميتها لديمومة الحياة البشرية، ومعتبراً المعرفة الطريق الوحيد إلى إدراك الخالق الواحد وضرورة إتباع المنهج الذي اختاره لخلاص البشر من التردي في مهاوي الجهل وسيطرة الأهواء المضللة، فالإنسان يولد بدون معرفة ولكنه يمتلك القدرة على التعلم، معتمداً في ذلك على عقله وحواسه، لذا فلا عذر لإنسان سوي في تركه أو إهماله التعلم وتحصيل المعرفة، التي يحتاجها لاتخاذ قراراته وتنظيم شؤون حياته.

تتأثر عملية التعلم في منظور نظام المعرفة الإسلامي بثلاثة عوامل أو قوى رئيسية: العقل والحواس، الأهواء، والوحي الرباني، فالعقل هو وسيلة التحليل والفهم، والحواس هي نوافذ العقل، التي من خلالها يدرك ويستقبل المعلومات، والعقل والحواس مثل بقية القدرات والوسائل البشرية – محدودة الكفاءة، وبالتالي فإن من الممكن أن تكون نتائج عمليات الإدراك الحسي والتحليل والاستنتاج العقلي خاطئة جزئياً أو كلياً، والعقل – بالذات – معرض للتأثر بالأهواء، والتي هي أهداف ورغبات وميول فكرية، قد تستحوذ على العقل بدرجة تجعله يغفل أو يتغافل عن اعتبارات أخرى جوهرية فيصبح العقل أسيراً للأهواء، ومصدراً لأفكار وسلوكيات سلبية، ومن هنا تبرز أهمية وضرورة الهدى الرباني كعنصر وقاية وعلاج مضاد للأهواء والتحيزات الناجمة عنها، ويؤدي تفاعل هذه القوى الثلاث – أي: العقل والهدى الرباني والأهواء، إلى حالات أو مستويات متباينة من المعرفة، تتراوح بين سيطرة الأهواء بسبب رفض أو إهمال الهدى الرباني، وما يترتب على ذلك من ضعف المناعة الفكرية إلى هيمنة العقل المهتدي كأعلى مستويات المعرفة.

لا يعتبر النظام المعرفي كاملاً وفعالاً بدون منهجية بحث تحدد المبادئ العامة والوسائل المثلى لجمع وتحليل البيانات وطرق الاستنتاج، ويتضح من دراسة الآيات القرآنية وجود هذه العناصر، والتي تدعوا بصورة جلية إلى اعتماد الوقائع والبيانات الصحيحة المستمدة بالطرق المباشرة مثل الملاحظة أو غير المباشرة كالإفادات أو الشهادات، كما أكدت على ضرورة التحقق من صحة البيانات قبل قبولها واعتمادها، وتطرقت لأنواع التحيزات، التي قد تدفع صاحبها إلى رفض الوقائع والبيانات، أو تحريفها لكي تتلاءم مع معتقداته المبدئية، وبينت أيضاً أنواع الأدلة اللازمة لوضع الاستنتاجات، ويتأكد لنا فعالية ورقي منهجية البحث الخاصة بنظام المعرفة الإسلامي من شمولها للطريقة التجريبية في الإثبات، والتي أشارت إليها عدد من الآيات القرآنية بصورة لا تقبل الجدل أو الاختلاف في التفسير.

تؤيد كافة الأدلة المقدمة في هذا الكتاب وجود نظام معرفة إسلامي، متطور وشامل للقواعد والمبادئ الأساسية اللازمة، بما في ذلك منهجية بحث متقدمة، ذات أهداف متفوقة حتى بالمقارنة بمنهجية البحث العلمي، مما يستوجب إضافة نظام المعرفة الإسلامي ومنهجية البحث الخاصة به إلى قائمة الإسهامات العظمى التي قدمتها الرسالة الإسلامية إلى البشرية.